G. الأمبراطورية الشرقية التي أسها خلفاء بغداد |٧٥٠ ـ ٩٤٥|

ملكية عربية ـ إيرانية موجهة نحو آسيا

I. أمبراطورية خلفاء بغداد العباسيين

إن أمبراطورية الخلفاء العباسيين في بغداد هي الأمبراطورية الماقبل الأخيرة من الأمبراطوريات الكبرى، التي أنشئت في منطقة الشرق الأدنى. وأما الأخيرة من بين تلك الأمبراطوريات الكبرى، فستكون أمبراطورية الأتراك ـ العثمانيين التي أسسها سلاطين القسطنطينية (١٥١٧ ـ ١٩١٨).

١ ـ الأمبراطورية العباسية، ملكية عربية ـ إيرانية متجهة نحو القارة الآسيوية

لقد أعطى المؤرخون الغربيون أسماء متنوعة لأمبراطورية بغداد الشرقية التي أطلق عليها المؤرخون العرب والمسلمون «دولة الخلفاء العباسيين». فهل يمكن اعتبار هذه الدولة من الناحية العرقية والسياسية تكويناً عربياً أم بالأصح عربياً ـ عراقياً أو ربما عربياً ـ عراقياً ـ إيرانياً؟ الواقع أن دولة بغداد العباسية الواسعة هي تشكيل سياسي فريد يضم، تحت إدارة أحد سلائل عم النبيﷺ شعوباً متباينة لا جامع يجمعها سوى اللغة العربية والدين الاسلامي وكلاهما مستورد حديثاً من منطقة الحجاز العربية.

«إن أمبراطورية الخليفة (العباسي) الواسعة هي مؤلفة من قطع منفصلة لم يسع حتى هذا العاهل أن يصنع منها آلة متجانسة. بيد أنه شكل منها مجموعة دامت ولم تتفكك إلا على المدى الطويل. فهناك حضارة مشتركة. وبما أننا في زمن وفي أمكنة يرتبط فيها الموضوع الزمني والموضوع الروحي بشكل وثيق فإننا نلاحظ بسهولة أن مصدر هذه الوحدة هو الدين الإسلامي والنفوذ الذي يمارسه على حياة الشعوب كلها.

ولا ريب بأن الأمزجة المحلية المتنوعة لم تصبح متماثلة،وأن إقليمية متشبثة كانت مستمرة في المقاطعات المختلفة في الأمبراطورية وتفرض على

الخلافة أساساً ثابتاً من انعدام التوازن. غير أن وحدة الأمبراطورية هي قبل كل شيء وحدة عاطفية وفكرية. وإن العقيدة الإسلامية، المنتشرة أولاً باللغة العربية بواسطة أدب غزير، ظلت في إطار حدود ضيقة»[1].

ومن جهة أخرى فهذه الأمبراطورية المتغايرة إنما تحكمها وتديرها عناصر عرقية منوعة وحيث أخذ العربي بحد ذاته يزول تدريجاً أمام السكان الأصليين المتحولين الى العروبة أو الاسلام من عراقيين وإيرانيين ولاحقاً أتراك.

وهكذا، ونكرر، في حين كانت خلافة المدينة دولة عربية إسلامية متمحورة على جزيرة العرب وفي حين كانت خلافة دمشق دولة عربية ـ سورية مرتكزة على قبائل سورية العربية ومتجهة نحو المتوسط، فإن خلافة بغداد المتمحورة على العراق وإيران هي دولة عربية ـ إيرانية متجهة نحو القارة الآسيوية.

أ ـ مغزى اختيار بغداد كعاصمة للأمبراطورية العباسية

إن أول عملية نقل لمقر الخلافة، والذي حوّل مركز الأمبراطورية العربية من المدينة الى دمشق، كان كما رأينا ردة فعل الشرق الحضري القديم ضد سيادة وسط الجزيرة العربية. غير أن خيار سورية، التي لا تلائم كثيراً من الناحية الجغرافية كي تكون مركزاً سياسياً لأمبراطورية شرقية واسعة، إنما أملته الظروف العارضة فكان تالياً موقتاً. فدمشق لم تكن إذن سوى محطة على الطريق التي، لا بد أن تؤدي بمقر الخلافة حتماً للوصول الى المركز الطبيعي للأمبراطوريات الشرقية القديمة وهو: سهول وادي النهرين التاريخية.

وإذا كان ارتقاء الأمويين سدة الخلافة واختيار دمشق كانا أكثر من تغيير سلالة مالكة وعاصمة، فارتقاء العباسيين سدة الخلافة وإقامتهم في بغداد هما بالأولى أكثر تعبيراً من هذا القبيل. ففيما تعاونت العناصر العربية والسورية في ظل حكم أموي دمشق في إدارة الأمبراطورية وحكمها فإن سكان العراق وإيران الأصليين في المقابل، في أيام حكم عباسي بغداد، حلوا محل العرب كقادة وحكام للدولة.

إن إقامة الأمويين في واحة دمشق، عند أبواب الصحراء المجال الخاص بالقبائل العربية، تشبه كما قلنا إقامة اليونان السلوقيين بعدما صاروا يونانا ـ

1 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 327, 328.

سوريين في أنطاكيا قرب البحر مجالهم الطبيعي. إن موقع دمشق المختلف عن موقع بغداد تمكن مقارنته بالأحرى بموقع بابل على الفرات والذي هو كدمشق قريب من الصحراء العربية.

ففي بابل، كما رأينا، فإن الأمبراطوريات المابينهرية القديمة، والتي أسست من قبل فاتحين جاؤوا من جزيرة العرب (عموريين، كلدان، إلخ...)، أقامت مركزها السياسي. لذا وفي حين كانت دمشق عربية ـ سورية وبابل عربية ـ عراقية إلا أن الوضع كان مختلفاً بالنسبة الى بغداد، التي بوقوعها على نهر دجلة إنما كانت بالأولى عراقية ـ إيرانية أو بتعبير آخر أكثر إيرانية وآسيوية منها عربية. ففي القرن الثامن «كانت بغداد تتمتع بموقع ممتاز، في بلد غني، وسط شعوب مثقفة، ولكنها لم تكن عاصمة لا لفارس ولا لسورية ولا لمصر ولا لجزيرة العرب، فقد كان يمكن لها أن تكون مركز جمعية أمم آسيا الأمامية: وهي على أي حال سوق عظيمة على طريق الهند»[2].

إن إقامة الخلفاء العباسيين في بغداد تجد مثيلاً لها بالضبط في تلك الإقامة التي كان من نتائجها تخلي أباطرة القرن الرابع عن روما وإيطاليا لصالح بيزنطية والعالم اليوناني ـ الإيجي. ففي بيزنطية، كما في بغداد، قامت عناصر حاكمة أخرى زوّد بها الوسط العرقي الجغرافي الجديد وحلت محل الأجناس الفاتحة التي أسست على التوالي الأمبراطورية الرومانية والأمبراطورية العربية. فالأمبراطورية البيزنطية، ومع احتفاظها بتسمية نفسها «أمبراطورية رومانية» واستخدامها اللغة اللاتينية إلا أنها، وكما رأينا، أصبحت تدريجاً أمبراطورية يونانية ـ شرقية.

وفي بغداد، وإذا كانت اللغة العربية قد تفوقت على اللغة الآرامية المحلية كما تفوقت على اللغة الفارسية، في حين طغت اليونانية في النهاية على اللغة اللاتينية في بيزنطية فما ذلك، ونكرر، إلا لكون اللغة العربية متفوقة على اللغات الآرامية والفارسية وهي علاوة على ذلك لغة القرآن الكريم والإسلام. ومن الملائم أن نضيف هنا أن الهندو ـ أوروبيين الرومان والفرس، وعلى نقيض اليونان، كانوا لا يهتمون عامة بنشر لغتهم وثقافتهم القوميتين. ولقد رأينا كيف أن الفاتحين الرومان أعلنوا أنفسهم في الشرق حماة الهللينية. وأما بالنسبة الى الإيرانيين فلنذكر بأن الأخمينيديين والبارتيين والساسانيين، والذين

2 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 272.

سادوا تباعاً في العراق، جعلوا من الآرامية، وليس من الإيرانية، اللغة الرسمية التجارية والدبلوماسية في أمبراطوريتهم.

ب ـ تفوق الإيرانيين سياسياً

في تاريخ أمبراطورية الخلفاء العربية ـ الإسلامية فإن العام ٧٥٠، والذي هو تاريخ ارتقاء سلالة العباسيين الحكم، هو كما رأينا[3] «تحول كبير قد يناهز بأهميته تاريخ الهجرة نفسه... فحتى العام ٧٥٠ ظل اندفاع القبائل العربية قائماً بزخمه الى العالم وإن ذلك الاندفاع هو الذي وسّع أطراف الأمبراطورية فمدّ حدودها من جهة الى الأندلس ومن الجهة الأخرى الى ما وراء النهر (سجديان). وأما في العام ٧٥٠ فإن اندفاع القبائل كان قد تلاشى...

فالعباسي، خلف الأموي، هو حقاً سليل الإمام علي صهر الرسولﷺ ولكنه أيضاً، من حيث النسب النسائي، سليل آخر الملوك الساسانيين كما أن الإمامة، يقول دارمستتر (في كتابه، نظرة على تاريخ فارس)، باتت راسخة في الدم العباسي بفعل حق إلهي مزدوج... فالثورة هي صنيعة فارس. والعباسيون الأول، الذين رفعتهم فارس الى الخلافة، أحاطوا أنفسهم بالفرس؛ ووزراؤهم الأول كانوا البرامكة، الذين كانوا موضع شك في كونهم يؤمنون ضمناً بدين زرادشت... فالعباسيون إذن هم ساسانيون حقيقيون من دم عربي»[4].

ج ـ الإيرانيون في الإدارة وفي الجيش

إن العباسيين من سلالة العباس عم الرسولﷺ، وبرغم أصلهم العربي، فهم، كما رأينا، خراسانيون مهاجرون من جزيرة العرب وقد رفعهم الإيرانيون وعرب خراسان الى سدة الخلافة. ومنذ ارتقاء أبي العباس سدة الخلافة العام ٧٥٠ فإن أسرة وزراء إيرانيين هم البرامكة، سوف يسيطرون على مقدرات الخلافة طوال أكثر من نصف قرن (٧٥٠ ـ ٨٠٤).

ولم يتم تنظيم الدولة العباسية إلا في أيام حكم المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) خلف أبي العباس والمؤسس الحقيقي للسلالة العباسية. وبدءاً من عهده راح

3 Voir ci-dessus, p. 171-172.
4 Gautier, *op. cit.*, p. 222, 223, 224.

الموالي الإيرانيون والعراقيون وهم سكان البلاد الأصليون، الذين اعتنقوا الإسلام، يدخلون الإدارة والجيش.

«إن طبقة المهتدين الجدد الى الاسلام حديثاً والملتفين حول عناصر عربية ضئيلة العدد هي التي حملت العباسيين الى السلطة. إن مركزهم، أقله في المحافظات الوسطى من الأمبراطورية، كان راسخاً في حرم الطائفة الإسلامية. فكان الخلفاء يختارون كبار ضباط الأمبراطورية من بين تلك العناصر الجديدة. وطوال أزهى سنوات السلالة العباسية، من الخليفة المنصور الى الخليفة هارون الرشيد، ظلت الحكومة في أيدي أسرة من الوزراء المتحدّرين من ميرف، هم البرامكة»[5].

وبدءاً من عهد هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) تعاظم شأن العنصر الإيراني في الأمبراطورية أكثر فأكثر. «فتحول فارس إلى الإسلام، وبوجه أكبر تعريبها، بلغ أوجه في مطلع القرن التاسع. لكن وفي الوقت نفسه فإن العنصر الإيراني بات على أتم ما يكون من وعي لشخصيته. وإن الفرس جاؤوا يحكمون في بغداد في أيام الخلفاء من أبناء النساء الفارسيات بإنتظار التخلي عن المقام الأول في بلادهم بالذات للأتراك»[6]. وفي الميدان العسكري «كانت القوى المادّية لدى السلالة العباسية ترد من الشرق. ففي خراسان كان الخليفة يجد الجنود الذين يدافعون عنه ضد أنصار علي وضد الخوارج وضد رعاياه»[7]. ففي حين كان الجيش الأموي مؤلفاً في معظمه من القبائل العربية من سورية وجزيرة العرب «فقد كان الخراسانيون يشكلون صلب الجيش العباسي أي العرب والإيرانيين الذين جندهم أبو مسلم في المحافظات الشرقية. وفي العام ١٧٨هـ. (٧٩٤ ـ ٧٩٥) قام الفضل بن يحيى البرمكي بتجنيد جيش من الإيرانيين كان على رأسه قادة من السكان الأصليين وقد بلغ عدد ذلك الجيش ماية ألف رجل، وكانوا يدعون العباسيين وجاء بعشرين ألفاً منهم إلى بغداد»[8].

د ـ طابع الأمبراطورية العباسية الآسيوي

وخلافاً لخلافة دمشق الأموية المرتكزة على مصر والمتجهة نحو المتوسط

5 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 275.
6 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 282.
7 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 275.
8 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 351, 352.

والغرب فإن خلافة بغداد العباسية كانت متجهة نحو إيران وآسيا. «وإذا كان صحيحاً أن البرامكة كانوا ينوون إحتلال القسطنطينية والسيطرة على البحر المتوسط الشرقي، إلا أن تلك السياسة لم تتخطَ فترة سيادتهم. فبدءاً من القرن التاسع كانت الخلافة في موقع دفاعي سلبي حيال الأمبراطور اليوناني. وسوف تصبح بعد ذلك،الخلافة العباسية آسيوية خالصة. إن تجارتها تتطور بإتجاه الخليج العربي والمحيط الهندي. كما أن أراضيها تزداد إتساعاً ناحية آسيا الوسطى. ولكن وحتى في هذا الإتجاه فإن الأمبراطورية لم تفلح في تحقيق توازن أو تماسك لنفسها. . .

إن تاريخ عباسيي بغداد يبدو وكأنه قد تحدد منذ أوائل عهده. فالسلالة العباسية، وقد أنشأها عرب إيرانيون جاؤوا من إيران ودافعوا عنها طوال عهود عديدة وتمت تقويتها أيام المأمون بواسطة الإيرانيين ثم ضعفت فحماها من ضعفها أمراء إيرانيون وسادوها هم ومن بعدهم الأتراك الذين مروا عبر إيران، إن السلالة العباسية هذه وفي خضم غموض تفاصيل عهودها ظلت خاضعة تماماً إلى تأثيرات من آسيا الوسطى»[9]. إن تلك الأحداث بالذات هي التي ستعطي للإسلام وبدءاً من ذلك العصر «الطابع الآسيوي الذي سيسهم غزو الحشود القادمة من آسيا الوسطى وإعتناقها الإسلام في الحفاظ عليه وإستمرارها به».

٢ ـ الخليفة العباسي

وعلى عكس خليفة المدينة الذي كان رئيساً لمدى الحياة على جمهورية تيوقراطية (إلهية) وعلى عكس خليفة دمشق الذي حافظ إلى حد كبير على دوره «كملك بدوي» أو شيخ أعلى وأبوي على القبائل العربية المقيمة في سورية فإن الخليفة العباسي كان ملكاً آسيوياً حقيقياً وخلفاً فعلياً للملوك الساسانيين الكبار.

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الدولة العباسية، وتماماً كالدولة الأموية أو دولة المدينة، لم يكن لها دستور ولا قواعد تنظم الحياة العامة. وإن خلفاء المدينة الثلاثة الأول، وقد كانوا أئمة أو أحباراً سامين، إكتسبوا سلطتهم بإجراء مرتجل وبطرق إنتخابية أو مبايعة على الطريقة البدوية، وأما رابعهم

9 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 271, 272, 305.

علي فلكونه صهر النبيﷺ. إن سلطة الخلفاء الأمويين كسلطة كبار زعماء البدو إنما تستند إلى قوة القبائل العربية وموافقتها. أما العباسيون، فبفعل تأثير وسطهم الإيراني ـ الآسيوي، إتبعوا المبدأ الذي نادى به علي وأتباعه وحصروا منصب الخلافة بأسرة النبيﷺ وبخاصة بسليلة عمه العباس، جد أسرتهم.

إن العباسيين، وأسوة بالأمويين، إقتبسوا مبادىء حكمهم من عادات وقوانين البلاد التي جعلوا مقر إقامتهم فيها. ففي بغداد كانت قوة الخلافة ترتكز على شعوب خراسان وفارس وكلده وهم شعوب حضرية قامت بثورة العام ٧٥٠ وسعت إلى الإفادة منها بعزم. إن الخلفاء العباسيين، وقد كانوا ملوكاً مطلقي السلطة كأسلافهم الساسانيين ومرهوبين ومكرمين حتى العبادة فقد كان لهم على الجميع حق الحياة والموت. وأما حيال الدولة فكانت واجباتهم واجبات رب العائلة الصالح، وكان رعاياهم في المقابل مدينين لهم بالطاعة والعون. وبصفتهم رؤساء روحيين كان الخلفاء قضاة سامين في شؤون العقيدة الدينية.

«إن الخليفة العباسي، ومنذ البداية، كان ملك ملوك ساسانياً وعاهلاً مطلق السلطة أشبه بفائق البشر. وقد إستمد من قرابته للنبيﷺ سلطة جديدة ليحكم بإسم القرآن والسنة... أما دستور الخلافة فهو، ومنذ قيامها، السلطة المطلقة التي تمهد لها تخفيفا الإغتيالات. وقد علق بها مع ذلك أثر من البدوية الأموية. فالخليفة الجديد أو ولي العهد يبايع خليفة من قبل بعض الرجال المعترف بهم على أنهم يمثلون الطائفة الإسلامية... ولا بد أن نلاحظ بإستغراب عدم إهتمام الشعب بمصير سادته. ومن السهل أن نعزو ذلك ببساطة إلى القدرية الدينية كما أنه ينطبق أيضاً مع لامبالاة بالسياسة بالغة القدم. فالشعب بحاجة إلى ملك إلهي يسود عليه من أعلى العليات فيعبده بمزيج من الروحانية والشك اللذين يزيلان عنه كل شخصية. ولا يعنيه من يكون هذا السيد.

وبالنسبة إلى سلالة ملكية من أصل شبه إلهي كسلالة العباسيين فإن مبدأ الوراثة يفرض نفسه. فالإسلام يجهل مبدأ التبني الذي خوّل الأباطرة الرومان منح بركتهم لأجنبي... «لكن إيران هي التي كانت تفرض أو تحتفظ بشكل شبه دائم بالخليفة، نظراً إلى أن قوة الأمبراطورية الجديدة هي في مقاطعاتها الشرقية. وكان العراق ما يزال بلداً، سكانُ مدنه معارضون غير أنهم على خشية فيما التجار والفلاحون مسالمون ونشطون تحيط بهم تجموعات

بـدوية عـاصية ومتفككـة. وسوريـة، كما رأينـا، كـانت منهكـة وسـاخـطة وأمـا جنودها فلم يكونوا يظهرون في الحروب الأهلية إلا لطعن الرؤسـاء الذين كـانوا يتظاهرون بدعمهم»[10].

٣ ـ تنظيم الأمبراطورية العباسية

أ ـ الإدارة المركزية

إن الخلفـاء العباسيـين، على نحـو ملوك الفرس الأقـدمين، كـانوا يلقـون عن عـواهلهم وزر الشؤون العامـة لإلقائهـا على عـواهل الـوزراء الـذين يحلون محل الخليفة ويمارسون كل صلاحياته. وعـلاوة على الـوزير كـان هناك أصحـاب مناصب كبرى آخرون يمارسون، بتوكيل من الخليفة، سلطة هـذا الخليفة العليـا والمـطلقة: كقـائد الجيش والقـاضي وحاكم المقـاطعـة والأمـير والعميـل ورئيس البريد، إلخ. . . وفي غياب مجلس دائم إلى جـانب الخليفة فـإن مكاتب السلطة التـسلسليـة، الموروثـة عن ملوك بيزنـطية والسـاسـانيـين كـانت تقـوم عـلى إدارة شؤون الأمبراطورية وتؤمن لها وحدة ظاهرية. وكان يقوم على إدارة تلك المكاتب كتّاب.

«وفي القرن العاشر كانت الوظائف العسكرية بمعظمها في أيدي مغامرين غـير مثقفين فيـما كان عمـال الماليـة من الفرس البـارعين في المحـاسبة والتجـارة ولكنهم طامعون بقيـادة الجيوش. وأمـا الفقهاء فكـانوا يشكلون طبقـة متعطشـة إلى الأموال والأمجاد وتطمح إلى كل الوظائف فضلاً عن وظيفـة القاضي. وكـان هؤلاء الفقهـاء، الـذين تضيق عقـولهم أكـثر فـأكـثر فضـلاً عن تـدني ثقـافتهم، يشكلون طبقة رجال دين غـالباً مـا كان نفـوذهم مشؤوماً وكـانوا من ألـد أعداء الفلاسفة والفنانين وكل فكر حي أو حساس. . .

الوزير. ـ إن الخليفـة، وفي ممارسـة السلطة، يختفي غالبـاً وراء الـوزيـر. والـوزير لم يكن في الحقيقـة موظفـاً في الأمبراطـورية ذا مهمـة محددة: بـل كـان بديلاً من الأمير. ولأنه يستمد سلطته من السيدالأعلى والأقـوى: فهو الرجل ذو الرئاستين أي مهام السيف والقلم وهو يقيم في قصر أميري ويتقاضى راتباً شهرياً كبيـراً، يزداد بشكـل خاص من عـطايا الخليفـة له والهبـات العقاريـة وما يقدمه الجميـع إليه من هـدايا. لقـد كان هنـاك سلالات من الـوزراء فضلاً عن

10 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 361, 362, 368 et 371.

سلالات من القضاة. بيد أنه وفي القرن العاشر تغيرت أهمية الوزير كثيراً إثر تعيين أمير الأمراء وكان هذا الأخير إلى جانب كونه رجل سيف يتولى إدارة الديوان الأمبراطوري أي بات يستأثر بصلاحيات الوزير الأساسية. . .

وكان بعض كبار الشخصيات يمارسون المهام التي تحافظ على إستمرار الحركة في الأجهزة الأساسية في الأمبراطورية. . . وكان الخليفة يعتبر أن نجاحه وقف على نزاهة أربعة موظفين من العيوب: قاض لا غبار عليه وقائد الشرطة الذي يكره القوي على رد الحق إلى الضعيف ورئيس مصلحة الضرائب الذي لا يتراخى في طلب الحق إنما من غير فظاظة ورئيس مصلحة البريد الذي يقدم تقارير صحيحة عن عمل الثلاثة الآخرين. . . الخليفة الصالح هو ذلك الذي يهتم بتطبيق العدالة ونشر الإزدهار على كل رقعة دوله (منهج الخليفة المأمون٨١٣ ـ ٨٣٣م.) ...

القاضي.ـ إن الخليفة هو القاضي الأعلى وهو يطبق مبادىء القرآن والسنة وهو يسند سلطته إلى قضاة. . . فالقاضي فضلاً عن صلاحياته كقاض فهو يمارس وصاية على القاصرين ويتسلم الوصايا ويعمل على ضمان تنفيذها ويعقد الزيجات. . .وبوسعه طلب فتوى من أحد الفقهاء وهذه العادة على الطريقة الرومانية سترسخ وتكمل لاحقا بتعيين فقيه رسمي هو المفتي. . . فقد لا يكون القاضي دائماً عالماً. إنه في أغلب الأحيان رجل بسيط العادات حظي بالتقدير نتيجة إستقامة طبعه. . . يساعده في عمله فقيه ممتهن. . . ومن حيث المبدأ فوظيفة القاضي هي مجانية. . . أما تطبيق القانون الجنائي فيعهد به عادة إلى قائد الشرطة وعملائه. من هنا كانت مصلحة الشرطة هامة في الدولة. . .

البريد.ـ رئيس البريد هو أهم الشخصيات الأربع الكبرى في الأمبراطورية لأنه يتجسس على الثلاثة الآخرين. فالبريد الملكي هو إرث ساساني وبخاصة بيزنطي. . . ففي كل مدينة كبرى. . . يعين الخليفة رئيس البريد الذي هو مسؤول عن البريد بلا ريب ولكنه على الأخص رئيس شرطة سرية تقوم بإطلاع العاهل عن طريق تقارير متواترة على الأحداث المحلية وسلوك الموظفين. وقد تمكنت الخلافة وبفضل التقليد الإداري الموروث عن الفراعنة وأباطرة الروم وملوك الملوك من مقاومة تصرفات حكامها العاطفية المنغمسين في اللهو والمستسلمين إلى القضاء والقدر. . . فالمكاتب الإدارية القليلة العدد في الأمبراطورية كانت قد تشكلت من مخلفات المكاتب البيزنطية

والساسانية القديمة. . . وإن إعتناق العديد من الشعوب الخاضعة للدين الإسلامي أوجد دفعة واحدة بورجوازية مسلمة جديدة مثقفة. . . لذا يصعب علينا أن نفهم لماذا لم تتمكن تلك الطبقة من مدّ الخلافة العباسية بحاجتها من كتّاب لإدارتها المركزية. . . كما يصعب علينا أكثر تفسير وجود العديد من الموظفين المسيحيين واليهود في مكاتب بغداد. ولعل وضعهم الأدنى كدافعي ضرائب أو تابعين كان يسمح للخليفة الإعتماد أكثر على ولائهم وإخلاصهم. . .

إن كل ذلك يشكل إدارة مختصرة للغاية. ولكن عيوب تلك الإدارة، ولامركزيتها الكبيرة وحتى ضعفها كانت كلها في نظر السكان عنصراً مفضلاً،في زمن يتميز بالبلبلة السياسية الكاملة. لقد إعتاد هؤلاء السكان منذ عصور بعيدة أن يسحقوا من قبل حكامهم وأن لا ينالوا منهم أية منفعة أو مساعدة. فقد تعلموا إذن أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم. . . ولكن ذلك الوضع يبقى مع ذلك غير مستقر فلقد جرف في النهاية ثقافة البلاد»[11].

ب ـ الحياة الإجتماعية والإقتصادية

لم يكن المجتمع العباسي يضم نبالة أو بورجوازية أو طبقة حرفيين مستقرة في وضعها. فالأرستوقراطية القريشية، التي كانت قائمة في عهد الأمويين، فقدت هيبتها. إلا أنه كان هناك نوع من الأرستوقراطية الدينية يتولى الخليفة الإنفاق عليها وتتوزع طبقاتها بحسب تاريخ إهتداء أفرادها إلى الإسلام وأهمية الخدمات التي يؤدونها. وكان هناك أيضاً بورجوازية الموظفين والتي كانت اهمية كل طبقة من طبقاتها مرتبطة بأهمية الوظائف التي تؤديها.

وقد عمل إتساع أراضي الأمبراطورية وخيرات أرضها وتنوع المناخات فيها والسكان ووضع المحافظات المتمدن والعلاقات التجارية مع الهند والصين وآسيا الوسطى وأوروبا وأفريقيا،كلها عملت حتماً على تنشيط العمليات التجارية. ولم تفقد تلك البلدان إزدهارها وتجارتها إلا بعد إكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح البحري وبدء الغزوات المغولية الكبرى.

الضرائب.ـ ظلت الأنواع الثلاثة من الضرائب التي يقرها الإسلام أي: الزكاة والجزية والخراج تجبى في الدولة العباسية.

11 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 389-399, 402-403, 407.

ج ـ المقاطعات.

وفي مقاطعات الأمبراطورية كانت سلطة الخليفة تناط بشخصيات كبرى تقوم بحكم تلك المقاطعات كنواب ملك حقيقيين. وفي زمن الحرب كان نواب الملك هؤلاء مزودين بصلاحيات واسعة جداً كعقد المعاهدات مثلاً وإحقاق العدالة وتوزيع الغنائم الحربية ومنح الرتب والدرجات. ولم يعد الجيش كما كان أيام الأمويين صورة عن تنظيم القبائل ، بل صار يتألف من متطوعين غير نظاميين وقوات نظامية تتقاضى روَاتبها من الدولة. وكان عديد هذا الجيش يتم تجنيده من العناصر غير العربية حيث يتم إستبعاد عرب جزيرة العرب. وعندما كان الأمر يتعلق بحرب محلية كان الحكام يعينون قادة الجيش. وإذ يحق لهم التصرف بالمالية فقد كانوا يخصصون ما يرد من أموال الضرائب لتلبية الحاجات المحلية أولاً وكانوا يرسلون إلى الحكومة المركزية ما يفيض من تلك الأموال. وأما العدالة في كل مقاطعة فيقوم بتأديتها القاضي التابع لقضاة رئيسيين. ولمنع الحكام من إعلان إستقلال مقاطعاتهم كانوا ينقلون غالباً عندما كان ذلك ممكناً.

وفي حين كانت سورية والعراق في عهد الأمويين تشكلان مقاطعتين يحكم الأولى منهما (سورية) مباشرة خليفة دمشق والثانية (العراق) مندوب للخليفة يقيم في الكوفة، أما في أيام حكم العباسيين فقد جزئت سورية والعراق وقسما إلى أقاليم عدة لم تكن حدودها ثابتة أو واضحة المعالم.

وأما وسط الأمبراطورية، وهو العراق، فقد قسم إلى ثلاث حكومات هي: الكوفة والبصرة وبغداد ولكل منها منطقتها الخضراء أو سوادها. وكان يحكم بغداد وضاحيتها رأساً البلاط الأمبراطوري فيما كانت حكومة الخليج العربي تضم دجلة والبحرين وعمان والموانىء وكان حاكمها، الذي كان أحياناً حاكم البصرة، يشرف على الطريق التجارية المؤدية إلى الهند والصين. وكان حاكم خراسان رئيس المقاطعات الآسيوية وهو يعين بشكل شبه دائم نواب الحكام فيها. وكانت بلاد ما بين النهرين والموصل تشكلان على العموم حكومة مع أذربيجان وأرمينيا. وأما على الحدود البيزنطية فكانت هناك العواصم وهي أقاليم عسكرية خاصة تنظم منها الحملات ضد أراضي بيزنطية.

وفي جزيرة العرب التي «تستمد قيمتها من مركزها الديني» فكانت هناك أقاليم عدة: المدينة ومكة والطائف واليمن والتي كانت تجمع في الغالب

لتخضع لحاكم واحد. إن الإهتمام الذي يوليه الخليفة لتلك المناطق يعود بخاصة إلى كونه «خادم الحرمين الشريفين»: مكة والمدينة.

«وأما سورية فلم يكن فيها أي مقاطعات. فإستبدال العاصمة أنزل دمشق إلى مرتبة دنيا، هي مركز إقليم. إن سلالة العباسيين الجديدة أشاحت بوجهها عن السوريين. فلقد كان العراقيون ما يزالون يذكرون بمرارة تلك الأيام التي كان فيها السوريون أي العرب المعسكرون في سورية هم الجيوش المخلصة للأمويين التي كانت تهب لقمع الثورات في وادي الرافدين. وإن أكثر الجنود صموداً من بين هؤلاء قد هاجر إلى إيران وباتوا في عداد الخراسانيين أوفى أتباع العباسيين. وأما الباقون فأفسدتهم حياة المدن أو عادوا إلى حياة البداوة»[12].

كان في سورية أقاليم عدة هي: قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين. وكان إقليم دمشق يضم بعلبك والغوطة وحوران.

ومثلما كانت مصر أيام الرومان والبيزنطيين «منطقة على حدة»، فقد ظلت كذلك أيام حكم العباسيين: وكانت الجغرافية تؤمن الإستقلال لحاكمها. وكانت الضرائب التي تجبى من مصر تزيد من حجم عائدات خزينة بغداد. ولكن وبدءاً من القرن العاشر إنفصلت مصر نهائياً عن الأمبراطورية وإستعادت تقاليدها القديمة بفرض سيادتها على سورية»[13].

وهكذا، وكما كان الوضع في ظل حكم البابليين والأشوريين والكلدان والفرس واليونانيين ـ الرومان، فإن سورية المنحصرة بين بلاد ما بين النهرين ومصر عادت تمثل من جديد عدداً كبيراً من المناطق المجزأة والمجموعات الإجتماعية المقسمة يتنازع عليها جيرانها الأقوياء في بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى ومصر.

٤ ـ خلافة بغداد والأمبراطورية البيزنطية

وخلافاً للأمويين الذين كان عهدهم بأكمله عهد توسع وفتوحات وصراعات ضد بيزنطية، إتبع العباسيون سياسة «تثبيت الوضع على حاله» خاصة. فخلافة بغداد، التي تخلت عن المتوسط لتستدير نحو آسيا القارية، إنما أهملت السياسة البحرية وتالياً الصراع ضد بيزنطية التي تسود إيجه.

12 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 329.
13 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 330.

غير أن أمبراطورية بغداد، وهي وريثة الساسانيين وسيدة الممر الإيراني، أقفلت في وجه البيزنطيين، الذين تقلصت مساحة أراضيهم ولبثوا أقوياء مع ذلك، الطريق نحو آسيا الجنوبية. ومن جهة أخرى فإن الأمبراطورية اليونانية لم يكن في وسعها أن تنسى أنها كانت في الماضي تسيطر على سورية ومصر وكانت تطمح لإعادة إحتلالها وان بلاد ما بين النهرين هي الطريق القارية الكبرى نحو آسيا.

وكما كان الوضع أيام الساسانيين والأمويين عادت الحرب لتصبح حالة مزمنة بين بغداد وبيزنطية. فمن الجانبين كانت حماسة المقاتلين يلهبها إيمانان متناقضان يمثلان دينين مختلفين. لكن الجهاد الإسلامي لم يعد على تأججه السابق. وككل شيء على الأرض فإن العقائد الإيمانية التي بدأت تشيخ لم تعد تثير القلوب والنفوس مثلما كانت تفعل في عز شبابها. ومن جهة أخرى فإن أسباب الصراع العباسي ـ البيزنطي هي ذات طابع إقتصادي وسياسي أكثر منه ديني.

«ويمكننا الإعتقاد بأن العداء الديني هو سبب جوهري للعداء بين الخليفة العباسي ممثل أسرة رسول الله ﷺ المقدسة وشبه نائب لله نفسه والحريص على معرفة وتنظيم أمور الإسلام وبين الأمبراطور البيزنطي، الذي يعتبر أن من أهم واجباته أن يمارس على رعاياه حكم الإيمان ويلزمهم بالطاعة لإدارته الروحية. وسنذكر لاحقاً أننا لا نتميز إلا نتيجة لا تذكر لكل ذلك»[14].

وهكذا، وتحت شكل جديد، فإن المسألة الشرقية الأبدية أو الصراع اليوناني-الآسيوي القديم، والذي كانت أول فصوله حرب طروادة (١١٨٠ق.م.) ومن ثم وبالأخص الحروب المادية (٤٩٢ ـ ٤٦٦ق.م.)، مستمرة من خلال التنافس بين العباسيين والبيزنطيين. وإن هذه المسألة القديمة، والتي تمت تسويتها مرات عديدة في الماضي إما بالقوة أو بالدبلوماسية، عادت لتفرض نفسها من جديد بحدتها الثابتة.

٥ ـ التقسيمات الزمنية لتاريخ الأمبراطورية العباسية

إن أمبراطورية دمشق الأموية عاشت أقل من قرن (٦٦١ ـ ٧٥٠) فيما أمبراطورية عباسيي بغداد، برغم إستمرار سلالة خلفائهم في العراق حتى

14 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 322.

الغزو المغولي العام ١٢٥٨، لم تستمر في الواقع، بإتساع أراضيها ووحدتها السياسية والدينية وطبعها العربي ـ الشرقي سوى مايقي عام تقريباً (٧٥٠ ـ ٩٤٥). فبعد العام ٩٤٥ حصل تفكك الأمبراطورية العربية-الإسلامية الكبرى وحلت الهيمنة الإيرانية ثم التركية في العراق.

إن القرنين الأولين من عمر الأمبراطورية العباسية (٧٥٠ ـ ٩٤٥) واللذين حافظت خلالهما تلك الأمبراطورية نوعاً ما على وحدتها الأرضية والسياسية وطابعها العربي ـ الشرقي يمكن تقسيمهما إلى حقبتين شبه متعادلتين دواماً.

فالمرحلة الأولى الممتدة طيلة نحو قرن (٧٥٠ ـ ٨٤٢) تشكل عصراً من العظمة والإزدهار الحقيقيين. إنه عصر الخلفاء العظام الأسطوريين: المنصور وهارون الرشيد والمأمون وقد كانوا ملوكاً شهيرين وإقترنت أسماؤهم بقصص ألف ليلة وليلة وسواها من الأعمال الأدبية والفنية التي إشتهر بها ذلك العصر من الحضارة والعلم والنور.

وأما المرحلة الثانية والتي طالت نحواً من قرن أيضاً (٨٤٢ ـ ٩٤٥) فقد شهدت بدء إنحلال الأمبراطورية وتجزئتها وإنحطاط السلطة الزمنية التي كان يمارسها الخليفة الذي تقلص دوره تدريجاً إلى دور إمام لصالح تعاظم سلطة قادة الحرس التركي ودورهم.

وبعد العام ٩٤٥ فإن الأمبراطورية الإسلامية ستفقد وحدتها السياسية التي صاغها عرب الفتح كما ستفقد طابعها العربي ـ الشرقي معاً. وسيظهر من جديد، كما كان يحصل بعد تفسخ كل الأمبراطوريات الشرقية القديمة، المشهد التاريخي نفسه: فمن جهة هناك العراق ومن جهة أخرى مصر وبين هذين البلدين المتنافسين مناطق الممر السوري ـ الفلسطيني المستقلة عملياً والتي يتنازع على إمتلاكها جاراها القويان.

وفي بغداد، حيث سيطر سلاطين بني بويه الإيرانيون (٩٤٥ ـ ١٠٥٥) فإن طابع الأمبراطورية العباسية سوف يصبح ولمدة قرن إيرانياً صرفاً. «مع بني بويه فإن المقاطعات الشرقية من الأمبراطورية (العراق وإيران) أصبحتا بوضوح خارج التاريخ العربي» (غودفروا ديمومبين). وبعد العام ١٠٥٥ فإن وصول الأتراك السلاجقة الذين خلفوا بني بويه على العرش في فارس والعراق،يسجل بداية الهيمنة التركية ـ الآسيوية على الشرق الأدنى، وستستمر تلك الهيمنة حتى

مطلع القرن العشرين. وتحت سيادة بني بويه الإيرانيين والأتراك السلاجقة المتوالية فإن الطابع العربي ـ الشرقي سيختفي تماماً من الأمبراطورية العباسية وإن سلطة الخليفة المحصورة بدور ديني فقط ستكون غالباً شرفية وإسمية.

وفي مصر وخلال هذه الفترة بالذات أي بدءاً من العام ٩٤٥ فإن سلالة الأتراك الأخشيديين ستكون عملياً مستقلة. وأما سلالة فاطمي أفريقيا الشمالية والذين سيعقبون الأخشيديين العام ٩٦٩ فسوف يجابهون العراق الإيراني بخلافة عربية ـ بربرية مستقلة سياسياً ودينياً هي: أمبراطورية خلفاء القاهرة الفاطميين. وهذه الأمبراطورية الإقليمية الجديدة في وادي النيل ستكون آخر ممثل للإسلام العربي في الشرق في مواجهة العراق الإيراني ثم التركي.

II. العصر العباسي الكبير |٧٥٠ ـ ٨٤٢|

١ ـ توطيد السلالة والأمبراطورية العباسيتين (٧٥٠ ـ ٨٢٠).

أ ـ عداء العرب والإيرانيين

بذل الخلفاء العباسيون الأول، الذين كانوا مسلمين أكثر منهم عرباً، قصارى جهدهم طوال نحو خمسين عاماً للحفاظ على ميزان التعادل بين العرب الذين أصلهم من الجزيرة العربية من جهة والإيرانيين الذين رفعوا السلالة العباسية إلى السلطة من جهة أخرى. ذلك كان العمل الشاق والعقيم الذي عكف عليه البرامكة، كبار الوزراء ذوو الأصل الفارسي. بيد أن التنافس الذي إنفجر بين ولدي هارون الرشيد وخلفيه، يدعم أحدهما العرب والآخر الفرس، والحرب الأهلية التي تلت ذلك كان من شأنها تكريس الإنفصال النهائي بين العرقين.

إن إنتصار النفوذ الفارسي في صراع الأخوين العباسيين، سيغير طابع تلك الملكية. إن الخلافة العباسية التي تجسد الملكية الساسانية سيبدو عليها التأثير الإيراني صراحة سواء في لياقة البلاط وتشريفاته والألبسة أو في الفنون والآداب. إن الوزراء البرامكة الكبار الذين يشكلون سلالة فارسية حقيقية (٧٥٠ ـ ٨٠٤) كانوا يمثلون قوة السلالة العباسية. بيد أن الخلفاء كان لهم شخصية قوية وكانوا يمارسون بذكاء وسيطرة دورهم كملوك.

ب ـ الخلفاء أبو العباس والمنصور مؤسسا السلالة ومنظما الأمبراطورية

أبو العباس (٧٥٠ ـ ٧٥٤) هو مؤسس السلالة العباسية وملقب «بالسفاح» لأنه أباد كل أعضاء الأسرة الأموية، وقد أمضى السنوات الأربع من حكمه في تنظيم أمبراطوريته. ووزعت المقاطعات على أعضاء أسرته وكان متردداً حول المكان الذي سيقيم فيه عاصمته وقد أقام في الكوفة مقر دولته.

وأما أخوه أبو جعفر المنصور وخلفه (٧٥٤ ـ ٧٧٥) فكان المؤسس الحقيقي لأسرة الخلفاء«فالأمبراطورية العباسية مدينة للمنصور في إرساء أسس إدارتها. وقد أبقى إجمالاً الإجراءات المتبعة أيام الأمويين، أي الدواوين على الطريقة البيزنطية والساسانية. ولم يتوانَ عن تسليم حتى العملاء والأرقاء المعتقين أرفع المناصب. وقد إجتذب المنصور إلى بلاطه علماء السنة الشريفة والفقه الذين شكلوا حتى ذلك التاريخ في المدينة عصبة معارضة ضد الأمويين، فهدف الحكم الإلهي (التيوقراطي) الذي كانوا ينشدونه قد تحقق الآن بعودة الخلافة إلى أيدي سلالة أهل بيت النبيﷺ»[١٥].

ج ـ ثورات تخمد بالعنف

وقد إضطرب عهد المنصور بأعمال تمرد عديدة كان أولها ثورة عمه عبدالله بن علي قائد الجيش المجند في سورية الشمالية لمحاربة البيزنطيين. إلا أن أبا مسلم بطل الثورة، والذي رفع أبا العباس إلى رأس الأمبراطورية، نجح في إنقاذ المنصور مرة جديدة عندما سحق المتمردين (٧٥٤). ولكن النفوذ الكبير الذي أعطي لأبي مسلم «صانع الخلفاء» أقلق المنصور الذي أمر بإغتياله (٧٥٤). وإن إنعدام الحس الخلقي الذي يميز العباسيين يمكن تبينه بجلاء من خلال هذا التصرف الجاحد الذي قام به الخليفة المنصور حيال خادم كبير وأمين للسلالة المالكة.

لكن أخطر ثورة واجهت المنصور كانت ثورة أنصار علي الذين إعتبروا العباسيين مغتصبي السلطة. فإندلعت إنتفاضة في المدينة العام ٧٦٢ غير أنه قضى عليها جيش خراساني بسهولة. لكن ثورة أنصار علي في البصرة كانت أدهى من الأولى إذ إنضم إليها كل من خوذستان (سوزيان) وفارس اللتان عبرتا عن خيبة أملهما في النظام الذي أسهمتا بذاتهما في إنشائه. وهذه الإنتفاضة الثانية أيضاً قمعت وسط حمام من الدماء (٧٦٣).

د ـ إختيار بغداد كعاصمة (٧٦٥)

ومنذ إرتقائه العرش صمم المنصور على تأسيس عاصمة أمبراطورية جديدة. فمدينة الكوفة، وهي العاصمة السابقة للعراق أيام خلفاء دمشق والتي إحتفظ بها العباس كمقر للخلافة الجديدة، كانت عربية أكثر منها عراقية

15 Brockelmann, *op. cit.*, p. 100.

وكانت مدينة مضطربة وخطرة على السلالة الجديدة. وأثار إنتباه المنصور موقع قرية صغيرة مسيحية تدعى بغداد على الضفة الغربية من نهر دجلة وعلى مقربة من كتيزيفون (المدائن) عاصمة الملوك الساسانيين القديمة. فإختيار الموقع الملائم وعناية الخليفة ضمنا لبغداد ، التي وقع عليها إختياره كعاصمة للأمبراطورية، الأهمية الكبيرة التي ستشهدها لاحقاً. كما أعطيت إسم دار السلام أو مدينة السلام. لكن تلك الأسماء الرنانة لم تنجح في أن تنزع عن المدينة إسمها الشعبي القديم: بغداد.

هـ ـ بلاط بغداد الجديد

«ومنذ البدء كان جو المقر الجديد مختلفاً عن جو دمشق. ولا ريب بأن بلاط المنصور كان ما يزال يشهد عرباً يدخلون إليه ويخرجون منه ولكنهم لم يعودوا يمثلون أمام الخليفة كما كانوا يفعلون أيام عبد الملك وكأنهم أمام «الأعلى منصباً بين أقرانه». فالخليفة لم يعد شيخ قبيلة يقيم في بغداد بل أصبح خلفاً لملوك فارس الكبار. حتى أنه لاحقاً نشأ إهتمام بالكتب الفارسية التي كانت تنظم الحفلات الرسمية في البلاط الساساني وحاولوا تقليدها. ولم تعد المراتب والمناصب في البلاط والدولة إمتيازات وراثية تستأثر بها النبالة. بل صارت تمنح على مزاج الخليفة وإستنسابه. وأما ثوب الشرف... الذي كان مجهولاً في عهد الأمويين فأصبح العلامة الخارجية لهذه الحظوة. وفي حين إكتفى الأمويون بتعيين حاجب كان عليه تنظيم الدخول إلى الخليفة فإن الخليفة الآن غدا معزولاً أكثر فأكثر عن الجمهور بجيش كبير من الموظفين والحاشية. وكان الخلفاء يتخلون بشكل شبه تام عن تصريف شؤون الدولة تاركين ذلك لوزرائهم. لكنهم كانوا يمارسون بلا وسيط حق الحياة أو الموت. وبات الجلاد، وهو شخصية كانت حتى ذلك التاريخ مجهولة في الثقافة العربية، يقف بإستمرار إلى جانب الخليفة وكان الجلد الذي تتدحرج عليه رؤوس الضحايا موجوداً دائماً قرب العرش»[16].

و ـ إضطهادات عنيفة ضد الهراطقة الإيرانيين

وفي حين كانت ترجمة الكتب اليونانية والسريانية قد بدأت راحت إضطرابات غامضة ترتسم في إيران حول زاعمي إجتراح معجزات غامضين كانوا يريدون أن يروا في الخليفة نصف ـ إله منتظر، وكانت الحروب غير

16 Brockelmann, *op. cit.*, p. 100.

الحاسمة تتواصل تقريباً من غير إنقطاع ومن غير نصر ضد البيزنطيين والخزر الترك في القفقاس ناهيك بترك ما وراء النهر (سجديان) والهندوس. وسوف تظهر الأجيال اللاحقة في الأمبراطورية أعجز عن وقف سيل هؤلاء الآسيويين.

المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٦) هو إبن المنصور وخلفه وكان أميراً محباً لحياة الترف والفنون والآداب. وفي أيام حكمه إضطرب أمن الأمبراطورية في الداخل بدسائس الهراطقة الفرس الذين كانوا يحاربون في سبيل إستقلالهم القومي أكثر منه لفكرة دينية. «وعوضاً عن الزرادشتية الصافية بقيت المانيشية تمارس الآن، لاسيما في العراق، نفوذاً كبيراً على معتنقي الإسلام حديثاً والذين لم تعد الشكليات الصارمة في الإسلام ترضيهم تماماً. وأصبحت المانيشية موقتاً دين الأشخاص المثقفين»[17]. وفي الموصل وحلب كان يجري محاربة المراكز المزدية بالإعدامات. ومن أجل الحفاظ على الوحدة الروحية بين الرعايا إسترسل الخليفة في ملاحقات دينية تعسفية ضد الهراطقة المانيشيين والمزدكيين (٧٨٠ ـ ٧٨٥). فأعدم العديد من كبار الشعراء ورجال الأدب المتهمين بتعاطفهم مع التطلعات السياسية ـ الدينية في الأوساط الإيرانية. ومن أشهر هؤلاء عبدالله بن المقفع، وهو فارسي إعتنق الإسلام وترجم إلى العربية كتباً فارسية عديدة أبرزها كتاب القصص الهندية «كليلة ودمنة» الذي سبق وترجم إلى الفارسية. وفي أيام حكم خلفاء المهدي فإن محاكم التفتيش أو الملاحقات أصبحت مع الأسف موجهة نشاطها ضد كل الذين لا يروقون للحكام.

ز ـ الحرب ضد بيزنطية. أول جريمة سلالية

وفي عهد الخليفة المهدي فإن بغداد التي ما إنفكت تتطور غدت ميناء الإبحار لتجارة الهند. وقد أعطيت صناعة البلاد إنطلاقة ذكية فتم بناء شبكة طرق واسعة وحسّنت خدمات البريد. وصار الشعراء والمنشدون يعاملون معاملة كريمة. لكن الحرب مع بيزنطية هي التي إحتلت في ذلك العهد حيزاً كبيراً: فهارون إبن الخليفة والقائد الرسمي للجيش نجح في أن يعسكر مع قواته على ضفاف البوسفور.

وبعد وفاة المهدي خلفه إبنه الهادي (٧٨٦) لكنه لم يحظَ برضى والدته

17 Brockelmann, *op. cit.*, p. 102.

خيزران الامة البربرية التي كانت تسيطر على زوجها. وبتحريض من تلك الأميرة الطامعة إغتيل الهادي (٧٨٦) قرب الموصل وإرتقى هارون العرش. وكانت هذه فاتحة الجرائم السلالية التي أدت في النهاية إلى إبادة السلالة العباسية التي ولدت في الدماء، وما إنفكت منذ ظهورها من التخبط فيها.

ح ـ الخليفة هارون الرشيد

وفي عهد هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) وهو خليفة شهير وأسطوري فإن قوة العالم العربي ـ الشرقي وعظمته وحضارته وإزدهاره بلغت أوج تطورها. وكان الرشيد شخصية سطحية لكنه كان نشطاً ومثابراً ويمتلك العقل الراشد وحساً عالياً بسلطته. وقد حكم هذا الملك الشهير والمزهو نحو ٢٣ عاماً. وهو يذكرنا بملك فرنسا لويس الرابع عشر الملقب بالملك ـ الشمس. وفي الواقع فإن الرشيد هو مدين للظروف أي للإزدهار المادي الكبير والمجهول سابقاً بما بلغه من مجد وعظمة كما أنه مدين بذلك أيضاً للمواهب الإدارية التي يتمتع بها الإيرانيون والذين أخذت أهميتهم تبرز بشكل أوضح بدءاً من عهده وبخاصة أسرة البرامكة منهم والتي أمر بإفنائها العام ٨٠٣.

ط ـ البرامكة (٧٥٠ ـ ٨٠٣)

كانت وظيفة الوزير، كما رأينا، وراثية في أسرة البرامكة الإيرانية. وأول جد لهذه الأسرة شغل هذا المنصب كان خالداً إبن برمك. وقد إختير العام ٧٥٠ من قبل أبي العباس مؤسس السلالة ليشغل منصب كاتب. وقد شغل أيام الخليفة المنصور إدارة المالية وأسهم في بناء بغداد وتجميلها. وكان عسكرياً ممتازاً فعهد إليه حكم الموصل وشارك في الحروب ضد البيزنطيين. بيد أن المأخذ الكبير الذي سجل عليه فهو أنه أثرى ثراء هائلاً.

وأما إبنه يحيى فكان أولاً مكلفاً بإدارة أذربيجان إلا أن المهدي إستدعاه إلى بغداد وعين رئيساً لديوان هارون الرشيد عندما عين هذا الأمير حاكماً على أرمينيا وأذربيجان (٧٧٧). وما أن إرتقى هارون سدة الخلافة حتى عين يحيى وزيراً فحكم هذا الوزير الأمبراطورية بالإشتراك مع ولديه فضل وجعفر من العام ٧٨٦ وحتى العام ٨٠٣. إن إبنه جعفراً، وبعدما صار مقرباً من الخليفة، فإنه عين وكلاء عنه لإدارة المحافظات الموكولة إدارتها إليه مباشرة. وبعدما أصبح قوياً وبالغ الثراء بدأت صداقته تزعج الخليفة. فعمد هارون الرشيد العام ٧٩٠ إلى إنتزاع ختم الدولة منه. وفي العام ٨٠٣ أمر الخليفة

بقتل جعفر كما إعتقل والده وإخوته وصودرت أموالهم.

وبعد قتل أبي مسلم الذي أوصل العباسيين إلى السلطة ها هي أسرة أخرى كبيرة من المخلصين للدولة العباسية، يدين لها الخلفاء العباسيون الأول بمجد عهودهم، تزول هي بدورها.

ي ـ إضطرابات وثورات

وفضلاً عن زوال حظوة البراكمة فقد شهد عهد هارون الرشيد الطويل أحداثاً هامة عديدة. ففي سورية حيث نشبت إضطرابات أمر هارون الرشيد بجمع السلاح من السكان. وتم إنشاء «عواصم» وهي مدن عسكرية على الحدود مع آسيا الصغرى لإستخدامها كمراكز هجوم ضد البيزنطيين. وكانت المعارك مع هؤلاء مستمرة بين نجاح وإخفاق. في إيران بقيت الغليانات الشعبية متأججة. وفي سمرقند عمد المتمردون الإيرانيون والأتراك إلى إخضاع كل بلاد ما وراء النهر (سجديان) العام ٨٠٥. وهذا التحالف الإيراني التركي كان مقدمة لإتحادات لاحقة بين هذين العنصرين اللذين ستفرض سيادتهما خلال القرون التالية.

ك ـ تحرر أفريقيا الشمالية (٨٠٠)

في ذلك الوقت أعلنت مناطق غرب المتوسط تحررها من أمبراطورية بغداد. وبطبيعة الحال كانت المملكة الأموية في إسبانيا المستقلة منذ سقوط أمويي دمشق (٧٥٦) شديدة العداء للعباسيين. ومنذ العام ٨٠٠ فإن شمال المغرب تم حكمه من جانب أنصار علي وأما المغرب الأوسط فكان دولة بربرية منفصلة أما إمارة أفريقيا (تونس) وهي إقطاع يحكمه أمير تغلبي بالوراثة فكانت تابعة لبغداد وحسب. وكان سفراء شارلمان، الذي أعاد حديثاً تكوين الأمبراطورية الرومانية الغربية، يسعون لعقد علاقات دبلوماسية مع هذا الأمير. حتى أنهم قاموا بعملية جس نبض من أجل القيام بعمل مشترك ضد إسبانيا الأموية. وفي ذلك الوقت أيضاً أرسل شارلمان إلى هارون الرشيد وفداً كان على الأرجح يسعى إلى الهدف نفسه.

ل ـ نزاع سلالي وحرب أهلية (٨٠٩ ـ ٨١٣)

إن التنافس بين العنصر العربي والعنصر الفارسي في الأمبراطورية، والذي يبرز في جميع المناسبات، إنفجر فجأة في نزاع الخلافة على العرش. فقبل موته كان هارون الرشيد قد عين خلفاً له في سدة الخلافة ولده الأمين

وهـو إبن أميرة عبـاسية وأسنـد إليه حكم سـورية. كـما أسنـد إلى إبنـه الأصغـر المأمون، الذي كان إبن جارية فـارسية، حكم خـراسان والمحـافظات الشـرقية. والأول عـيّن مستشاراً لـه عربيـاً كان وزيـراً لأبيه هـو فضل بن ربي وأمـا الثـاني فإتخذ وزيراً فارسياً.

وبعـد موت هـارون بدأت الأمبـراطوريـة، التي كـانت وحـدتهـا شكليـة وحسب، تنذر بخطر الإنقسـام إلى جزئـين. وإنفجر الصـراع العام ٨١٠ وأعلن الأمين أخاه معزولاً وأرسل قوات للقبض عليه. وأما المأمـون فرد بـإعلان نفسـه خليفة وأرسل من مرو قوات مؤلفة من خراسانيين وأتـراك ضد أخيـه. فحوصـر الأمـين في بغداد حيث هـزم وقتل وإحتلت بغـداد وأصبح المـأمـون هـو الخليفـة الوحيد (٨١٣).

إن هذا الصراع بين الأخوين سيجعل من الجنود من الآن فصـاعداً سـادة الخـلافة. لقـد مضى عهد النـزاعات القبليـة التي أزالها العبـاسيون وحـل محلها بـدءاً من ذلك العصـر التنافس عـلى إستقطاب القـادة العسكريـين الذين كـانوا يباعون لمن يدفع أكثر. وراح ضعف الأمبراطـورية يخـرج إلى العلن وسرعـان ما ستقع الخلافة تحت رحمة حكم الحرس التركي المكلف بحراسة الخلفاء.

م ـ ثورة الكوفة (٨١٤ ـ ٨١٥).

المـأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) كـان أميراً ذكيـاً ومثقفاً ولكنـه كان غـير متـزن في سلوكه وأفكاره. فبعدما أصبح الخليفة الـوحيد بعـد إنتصاره عـلى أخيه ظـل مع ذلـك وطـوال السنـوات الست الأولى من حكمـه في مـرو وهي مـدينـة في خراسان، مقر حكومته السابقـة. وقد إستغـل أنصار عـلي غيابـه هذا للنيـل منه فأعلنوا أحد رجالهم وهـو محمد إبن طبـاطباء مـرشحاً ومـطالباً بتـولي الخلافـة في الكوفة. لكن هرثمة قـائد المـأمون هـزم إبن طباطبـاء وإستعاد الكـوفة والمـدائن وواسط (٨١٥). وقد كان هذا النصر، الذي حققه هرثمة إضـافة إلى نصـره في الصراع مع الأمين، كافياً لجعله خطراً في نظر المأمون. لذا ما أن عاد هذا القائد الظافر إلى مرو حتى أمر المأمون بتوقيفه وقتله (٨١٦).

وإن المـأمون، مبـالغاً عـلى الأرجح في تقـدير أهميـة أنصـار عـلي ومحـاولاً كسب تعـاطف العراقيـين، زوج إبنته من علوي هـو علي رضـا وعينـه خلفاً لـه على العرش وإستبـدل في الـوقت نفسه العلم العبـاسي الأسود بعلم أنصـار علي الأخضر.

ن ـ تمرد بغداد والعراق (٨١٧ ـ ٨١٩)

ما أن عم الإستياء بغداد والعراق وشعرا بالتهديد من جراء غياب الخليفة الطويل وسلطة الإيرانيين المتزايدة حتى ثارا (٨١٧) وأعلنا عم المأمون إبراهيم إبن الخليفة المهدي، خليفة. وإن عظم الخطر حدا المأمون لمغادرة مرو والزحف على رأس جيش إلى بغداد. ومتبعاً الأسلوب الذي إعتمدته أسرته عمد وهو في طريق العودة إلى عزل وزيره الفضل بن سهل وصهره ووريثه علي رضا وقتلهما. وما لبث أن إعتبر الشيعة علي رضا شهيداً ودفنوه في مشهد في الموقع الذي يمثل إلى اليوم أكبر مقدس لطائفة الشيعة قرب كربلاء. وفي العام ٨١٩ دخل المأمون ظافراً إلى بغداد.

٢ ـ يقظة القومية الإيرانية. تحرر خراسان

إن الحركة الإيرانية التي رفعت العباسيين إلى السلطة لم تكن سوى مرحلة إنتقالية وشكل عابر إتخذته ردة فعل ضد السيادة العربية ـ السورية. إن المحافظات الإيرانية التي كانت منذ الفتح العربي قد إستعادت وعيها بقوميتها، أخذت تطمح الآن للتحرر التام. وإن إيران، مع بقائها في كنف الطاعة الدينية للخلافة، راحت تسعى لإستعادة زمام مصيرها. وفي القرن التاسع فإن العنصر العربي في إيران العباسية فقد نهائيا كل تفوق سياسي لصالح العنصر الإيراني. وبدءاً من هذا العهد فإن ثأر هذا العنصر الإيراني سيصبح أكثر فاعلية.

أ ـ إضطرابات في فارس (٨٢٠)

وفي العام ٨٢٠ عادت الإضطرابات في فارس إلى الساحة فكان يؤججها بابك الذي كان يدعو إلى عقيدة دينية تقول بتناسخ الأرواح وتجسد الإله فإجتذب إليه العديد من الأتباع. وبعد حرب طويلة هزم بابك وأنصاره وأخضعوا (٨٣٧).

ب ـ تحرر خراسان (٨٢٢)،إرتقاء سلالة الطاهريين الايرانيين العرش

وفي خراسان التي انطلقت منها الحركة المؤيدة للعباسيين العام ٧٥٠ تأسست أول سلالة ايرانية مالكة منذ الفتح العربي. في العام ٨٢١ نشبت انتفاضة قام بها الخوارج في خراسان. فعيّن الخليفة المأمون قائد الجيش طاهر، وهو فارسي كان قد أعانه في التغلب على أخيه الأمين وإرتقاء العرش، حاكماً

على المقاطعة المتمردة. وبعدما قمع طاهر الانتفاضة سيطر على خراسان وأعلن استقلاله فيها (٨٢٢) ولم يعد يذكر اسم الخليفة خلال خطبة يوم الجمعة في مسجد مرو. وأما المأمون، وقد سلّم بالأمر الواقع، فقد منح وريث طاهر منطقة خراسان ليحكمها كإيالة او إقطاعة. وهكذا وبعد إسبانيا المقاطعة الأبعد من ناحية الغرب والتي تحررت العام ٧٥٦ وبعد خسارة المغرب العام ٨٠٠ فإن الامبراطورية العباسية فقدت نهائياً خراسان العام ٨٢٢ وهي مقاطعتها الأبعد من ناحية الشرق.

ج ـ إضطرابات في مصر وغزوات ضد الأراضي البيزنطية (٨٣٣)

وفي مصر نشبت إضطرابات في البلاد منذ العام ٨١٣ ثم نشب تمرد قبطي استوجب تدخل المأمون بنفسه لقمعه. وأما ضد البيزنطيين فكان الخليفة يشن غزوات مستمرة متخذاً من دمشق قاعدة لعملياته. وفي العام ٨٣٣ توفي المأمون قرب طرسوس في كيليكيا.

د ـ الحياة الثقافية في عهد الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣)

بلغت سلالة العباسيين ذروة مجدها في عهد الخليفة المأمون. كما بلغت اللغة العربية أوج كمالها. وإن هذا الخليفة، إيماناً بدوره كإمام للمسلمين، أبدى اهتماماً فائقاً بالمسائل الدينية وبالعلم اليوناني الذي كان مقره في الأديرة السورية. وعلى خطى المعتزلة أعلن ان القرآن الكريم «مخلوق» وليس أبدياً. وفي مناسبة تلك المناقشات الدينية حدد كبار الأئمة مبادىء دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وقام علماء مترجمون بنقل اعمال ارسطو وآريان الى اللغة العربية.

هـ ـ إستبعاد العرب وتجنيد الترك في الجيش العباسي

المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) هو أخو المأمون وخلفه ويعتبر عهده «في تاريخ الشرق المسلم عهداً ذا اهمية كبيرة: ذلك أنه وفي أيام خلافته اختفى اسم العربي من بلاط بغداد وأخذ الأتراك في الجيش المركز المرموق.

إن الخلافة العباسية لم تثق يوماً ثقة كبيرة بالعرب، الذين أزالت قوتهم بإغراقهم في فرق عسكرية فارسية وخراسانية أو ديلمية. وقد اتسعت الهوة بين العرب والفرس عندما نشب النزاع بين الأمين والمأمون. ولكن وفي نهاية عهده

أدرك المأمون ان الفرس ربما ليسوا مصدر ثقة،للخلافة بالطبع.ولذا فإنه شجع حكام بخارى السامانيين على إرسال عدد من الأرقاء الأتراك في اطار الجزية السنوية المتوجب دفعها للدولة ...

فقد شكل المعتصم إذن جيشاً تركياً قوياً في حياة أخيه المأمون ولذا استطاع ان يفرض على والي مصر منع العرب نهائياً من تولي مراكز في الجيش. وكانت تلك أول بادرة خليفية، وإذا كان قد نجح في انجازها رسمياً فما ذلك إلا لأنه كان في الاجمال يكرس أمراً واقعاً عملياً. . . فبدءاً من القرن التاسع كانت شعوب الامبراطورية الاسلامية قد اصبحت في الواقع تحت وطأة الفارس التركي المرتزق»[18].

وفي العام ٨٣٧ أرسل المعتصم جيشاً على رأسه القائد الايراني الشهير أفشين ضد المتمرد بابك في اذربيجان. فنجح أفشين في تحطيم سلطة بابك وإرتد من ثم على البيزنطيين الذين اقتحموا شمال سورية وبلاد ما بين النهرين وهزمهم وطردهم منها. وما لبثت تلك الانتصارات ان تسببت بهلاك أفشين،اذ ما أن عاد الى بغداد حتى أمر الخليفة بسجنه في زنزانة حيث قضى من الجوع (٨٣٨).

و ـ إنشاء حرس تركي للخليفة

إن التنافس بين العرب والفرس قد أكره المأمون على إناطة حمايته الشخصية بجيش من الأرقاء مؤلف من البربر وبخاصة من الأتراك. وفي ايام المعتصم تم إستبدال قادة هذا الحرس الامبراطوري بأرقاء ما لبثوا ان أصبحوا خلال وقت قصير سادة الدولة الحقيقيين.

ز ـ سامراء تحل محل بغداد كعاصمة (٨٣٨)

إن بغداد، وبعدما اصبحت في غالبيتها عربية أو آرامية مستعربة ومؤسلمة، بدأت تقلق الخلفاء الذين لم يكونوا يشعرون فيها بالأمان. فالمعتصم، وهو آخر خليفة عباسي كبير، كان يؤرقه شبح الخوف من قيام عصيان يحركه العرب ضده. فغادر بغداد وانتقل مع حرسه التركي الى مسافة قريبة منها ناحية الشمال الى مدينة سامراء الصغيرة والتي اختارها سلفه كمقر

18 Wiet, *op. cit.*, p. 77, 78.

إقـامة لـه. وطوال نصف قـرن أقام سبعـة خلفاء بـلاطهم في هذه المـدينـة وقـد جُمّلت بالقصور والمساجد.

ومن المفيد ان نذكّر هنا بـأنه ولسبب مـماثل نقـل اواخر الخلفـاء الأمويـين مقر إقامتهم الى قصـور شادوهـا في الصحراء بعـدما أصبحت عـاصمتهم دمشق هي أيضاً في معظمها مستعربة ومعتنقـة للإسلام وكانت تزعجهم بمطالبها.

III. إنحطاط الامبراطورية العباسية وتجزئتها
٨٤٢ ـ ٩٤٥

وبموت المعتصم إنتهى عصر الخلفاء العباسيين الكبار (٧٥٠ ـ ٨٤٢) وخلال العصر التالي (٨٤٢ ـ ٩٤٥) أخذت سلطة بغداد تضعف شيئاً فشيئاً لتزول تماماً بعد العام ٩٣٦ أمام سلطة قائد الحرس التركي الذي، وتحت اسم أمير الامراء، سوف يزيل الوزير ويحجب سلطة الخليفة نفسه ليصبح السيد الحقيقي للدولة. وخلال هذه المرحلة من الانحطاط بدأ تفكك الامبراطورية وراحت السلالات الاقليمية الصغيرة تقوم في المقاطعات.

وهكذا، وأسوة بالامبراطوريات الشرقية الكبرى التي سبقتها، فإن امبراطورية العباسيين مالت الى التفكك مع تداعي القوة التي انشأتها. إن تلك الامبراطورية، وقد كانت تشكيلاً سياسياً متناقضاً وتالياً غير ثابت في أساسه، سوف تسير من الآن فصاعداً، وتبعاً لسنن التاريخ، نحو التفكك والتجزؤ الى اجزاء متفرقة يطمح كل منها الى استعادة استقلاله فضلاً عن دوره كأمة جغرافية وتاريخية.

١ ـ قائد الحرس التركي سلطان ووصي على الخلافة (٨٤٢)

وعلى غرار الحرس الأمبراطوري ايام اباطرة روما وبيزنطية فإن قادة الحرس التركي أيام حكم خلفاء المعتصم، وبعدما استطاب لهم المقام في السلطة، اصبحوا يفرضون وصايتهم على الخليفة ويتصرفون بالعرش. وبدءا من العام ٨٤٢ «فإن احداث تلك العهود كانت تقريباً كلها متشابهة: مؤامرات الأمراء الأتراك لاختيار سيد طيع واستغلال جهود الخليفة اذا كان يتمتع ببعض الارادة لضرب الأمراء بعضهم ببعض والحكم من وراء خلافاتهم وأيضاً للبحث عن دعم له ضدهم لدى برابرة آخرين»[19].

19 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 288.

الـواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧) هو إبن المعتصم وخلفـه وقد منـح قـائـد حـرسـه لقب سلطان وتـوفي العـام ٨٤٧. إن الحـرس الـذين أعلنـوا أولاً ابنـه القـاصـر خليفة ما لبثوا ان استبدلوه بعم هذا الأخير جعفر المتوكل (٨٤٧).

أ ـ عهد المتوكل أو آخر تحرك للسلالة العباسية.

الخليفة المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي وصفه أحد المؤرخين بأنه «نيرون العرب» حاول منذ ارتقائه العرش أن يتخلص من نفوذ الحرس الأمبراطوري الذي أوصله إلى العرش. ولما شعر بضعف مركزه بين عاصمة فوضوية لا يوثق بها وحرس مستعد لفرض إرادته، حاول القيام برد فعل لمقاومة هذا الوضع. ووفاء لأساليب عائلته بدأ بإزالة قائد الحرس التركي الذي كان في الوقت نفسه قائد الجيش ووزيراً للمالية وقد كان مديناً له بالوصول الى العرش.

وسعياً لاستمالة الجزء العـربي من الأمبراطـورية، والـذي بعقيدتـه السنية كان معادياً للجزء الشيعي والشرقي وتالياً لأسرة النبيﷺ التي كـان العباسيـون يلوذون بالقربى لها،فإن المتوكل سلك سلوكاً معاكسـاً لأسلافـه المباشـرين وحاول الاعتمـاد على العقيـدة الاسلاميـة المستقيمـة الـرأي التي يحضهـا عـلى التعصب علماء الـدين والفقهاء. فقـام بتشجيع حـركة مقـاومة قـومية ودينيـة مستنداً عـلى الشافعيين السنة ضد أنصار علي. فشنّ إضـطهاد عـام ضد المـذاهب الاسلاميـة غير السنية. ومنعت إية مناقشة حول القرآن. ولوحق المعتزلة ومنعت حرية الرأي. وطال الاضطهاد أيضاً الأديان غير الاسلامية.

«وهـدم ضريـح الحسين في كـربلاء ومنـع الحج الى تلك العتبـات. وحتى ان المسيحيـين واليهود الـذين لعبوا دوراً كبيـراً كعلماء لا سيما كـأطبـاء في بـلاط اسلافه كان المتوكل نفسه لا يستطيع الاستغناء عنهم كلياً، فقد عانوا من تعصب هـذا الخليفة الـذي تسلم السلطة. وهدمت الكنـائس المسيحية والكُنُس اليهـودية المبنيـة حديثـاً في بغداد في حـين أكره أتبـاع تلك الديـانتين عـلى وضع شـارات مهينة عـلى ألبستهم ومنعوا من اقتنـاء اي حيوانـات ركوب اخـرى غـير الحمير والبغال»[٢٠].

إن تلك التدابير المهينـة، والتي اتخذت ضـد «اهل الكتـاب» الذين كـانوا

20 Brockelmann, *op. cit.*, p. 119.

حتى ذلك التاريخ يتمتعون بالحماية ويعاملون معاملة حسنة نسبيا لا تشرف صاحبها. بيد أنها مع ذلك كانت أقل عنفاً بكثير من الاضطهادات التي مارسها ضد المسيحيين بعض الأباطرة الرومان.

ب ـ المتوكل يقتل على يد حرسه (٨٦١)

إن تعصب المتوكل وطغيانه كلفاه عرشه وحياته. وإن هذا الخليفة الذي فعل كل ما في وسعه للتحرر من حرسه التركي اغتيل في النهاية على ايدي أولئك الحرس بتحريض من إبنه وخلفه المستنصر (٨٦١).

ج ـ تسارع انهيار الخلافة

إن حكم المتوكل، بطبعه المتسم بردة الفعل الوحشية، يمثل الانتفاضة الأخيرة للسلالة العباسية التي كانت بالغة القوة في الماضي. وحل إضطراب بائس محل السلطة المنظمة والمزدهرة السابقة. وبرغم استقلال النشاط الفكري عن القوة السياسية فسوف يعاني من الاختناق بفعل إنعدام الأمن الاجتماعي. فالسكان استمروا في العمل ودفع الضرائب، لكن الازدهار كان يتراجع والمحاسيب يضعون أيديهم على الضرائب. ومع ذلك استمر اطار الأمبراطورية العام، لكن هذه الأمبراطورية اصبح زمامها في يد الحرس الأمبراطوري التركي وليس الخلفاء. «فهؤلاء الخلفاء الذين كانوا بالكاد يتمتعون بالسلطة الروحية أصبحوا دمى تتقاذفها نزوات ومطامع مستبدين عاجزين ومتوحشين».

المستنصر (٨٦٢) آثر العلويين وأعاد بناء اضرحة كربلاء ثم قضى مسموماً على يد حرسه التركي بعد خمسة شهور من توليه الخلافة (٨٦٢).

د ـ تمرد الزنج (٨٦٥)

ومن العام ٨٦٢ وحتى العام ٨٧٠ تعاقب على الحكم ثلاثة خلفاء: عم المستعين والمعتز والمهتدي وحاولوا التحرر من وصاية الترك لكنهم اغتيلوا على التوالي. وهذه الأحداث التي أضيفت الى ضعف الحكم المركزي شجعت على قيام دولة من قطاع الطرق عند مداخل العاصمة. وكان هؤلاء من الأرقاء الهاربين ومن زنوج افريقيا الشرقية الذين ظلوا طوال سنوات عديدة يزرعون الرعب في جميع بلاد بابل. وهذه المجموعات المؤلفة من الأرقاء المتمردين الذين كانوا يستثمرون ملاحات قرب البصرة بقيادة رجل فارسي يدّعي انه من سلالة علي وفاطمة، فرضت سيادتها على كل منطقة البصرة وراحت تطالب بحريتها وبتحسين وضعها. وكانت الجيوش التي ترسل ضدهم من

بغداد تهزم بانتظام (٨٦٩). وإن هؤلاء المتمردين، الذين اسسوا مدينة جديدة سموها المختارة، سادوا وادي دجلة حتى مصبه.

هـ ـ عجز بغداد

ولما كان الخليفة المعتمد عاجزاً فقد تخلى عن السلطة لأخيه موفق (٨٧٠ ـ ٨٩٢) وهو أمير مخلص ونشط حكم البلاد كوصي. وفي العام ٨٧١ رد الزنج جيشاً أرسل لاخضاعهم، وفي السنة نفسها انضمت القبائل البدوية المخيمة في الجوار الى المتمردين ونجحوا معاً في أخذ مدينة البصرة على حين غرّة وعبثوا فيها نهباً وتنكيلاً وإحراقاً وقدّر بعض المؤرخين عدد ضحايا هذا الهجوم على المدينة بـ٣٠٠,٠٠٠ قتيل. وفي العام ٨٧٢ قضى المتمردون على الخليفة موفق نفسه. ولما رأى الوصي على العرش بأن هناك خطراً أكبر يهدد في الشرق تخلى عن محاربة هؤلاء الزنج لفترة ولم يتم إخماد فتنتهم الا العام ٨٨٣.

٢ ـ إستقلال ايران الشرقية (٨٧٠).

سلالات السفاريين والسامانيين الإيرانية

رأينا خراسان في ظل حكم سلالة الطاهريين الايرانية تنفصل عن بغداد العام ٨٢٢ لتشكل دولة اقليمية ايرانية، والتي رغم استمرارها في الطاعة الدينية لخليفة بغداد، إلا أنها كانت منفصلة عنه سياسياً.

وبدءاً من منتصف القرن التاسع، اصبحت يقظة القومية الايرانية أشد خطراً. فسلالة السفاريين التي حلت محل سلالة الطاهريين ثم استبدلت بدورها بسلالة السامانيين سوف تجمع كل مناطق إيران الشرقية في امبراطورية ايرانية مستقلة واحدة.

أ ـ السفاريون يحلون محل الطاهريين (٨٧٣)

وفي مقاطعة سجستان الشرقية جنوب شرق إيران قام إيراني يدعى يعقوب وهو سفّار سابقاً أي صانع قدور (ومن هنا جاء إسم سلالته بالسفاريين) وإستولى على كل تلك المقاطعة العام ٨٦٠. وفي العام ٨٦٩ إحتل شيراز. وفي العام ٨٧١ فإن موفقاً الوصي على العرش، ولتحويل وجهته عن الغرب، منحه إيالات او إقطاعات في الشرق. وفي العام ٨٧٣ إستغل يعقوب ضعف طاهريي خراسان، الذين تحرروا العام ٨٢٢ من سلطة بغداد،

فإستولى على عاصمتهم مرو وقضى على سلالتهم وسيطر على كل ايران الشرقية.

وفي العام ٨٧٥ سيّر يعقوب حملة على بغداد وكان موفق في إنتظاره عند أبوابها حيث ألحق به أول هزيمة يتلقاها خلال حياته المغامرة. لكن الخليفة، الذي كان منشغلاً بحرب ضد الزنج، لم يجرؤ على تعقب السفاري خلال تراجعه لا بل حاول مصالحته ليأمن شره فإعترف لابنه عمرو بالفتوحات التي حققها أبوه يعقوب كما منحه منصباً فخرياً عندما جعله حاكماً عسكرياً على بغداد.

ب ـ السامانيون يخلفون السفاريين (٩٠٣ ـ ٩٩٩)

هناك سلالة ايرانية اخرى هي سلالة السامانيين وأصلها من قرية سامان قامت بخلع السفاريين والحلول محلهم العام ٩٠٣. ومع ارتقاء تلك السلالة سدة حكم خراسان وسجستان وسجديان (ما وراء النهر) وبخارى وسمرقند أي كل إيران الشرقية، فإن النهضة الايرانية بحد ذاتها باتت حقيقة واضحة.

ج ـ نهضة الثقافة الفارسية القديمة

إن السامانيين الذين اعتنقوا حديثاً الإسلام، وبرغم بقائهم على ايمانهم الجديد، فإنهم أحيوا تقاليد بلادهم التاريخية. ففي عهدهم بدأ فعلاً تاريخ الثقافة الفارسية أو نهضة فارس القديمة. ومن أجل إبراز معنى وطابع هذا التجديد القومي فإن السامانيين نسبوا أصلهم اسرتهم الى أحد الأبطال الساسانيين. «ففي النصف الأول من القرن العاشر كانت البلاد السامانية مراكز ثقافة مزدهرة... فالوعي القومي الفارسي الذي خضع زمناً طويلاً للتفوق السياسي والديني العربي استيقظ هنا من جديد. فمنذ بدء السيطرة العباسية فإن الفرس كثيراً ما تفوقوا على العرب سواء في الحكم السياسي أو الحياة الروحية. ولكن أعمال هؤلاء الفرس افادت العرب كون الفرس لم يعد بوسعهم الاستغناء عن لغة القرآن الكريم في الحياة العامة والأدب. إلا أنه، وهنا، في شرق إيران فكر الفرس للمرة الأولى بكرامة لغتهم الأم. فآلى بلاط السامانيين على نفسه تعزيز هذا الإرث الروحي. وفي أيام الملك نصر الثاني ظهر أول شاعر غزلي فارسي هو روداكي... الذي هو أيضاً مبتكر أغزر أنواع الأدب الفارسي الموعظي ـ الملحمي. وقد نقل الى الفارسية قصص كليلة ودمنة، وهي قصص هندية قديمة مشهورة، في قوالب شعرية. وقام بعد

ذلك الفارسي إبن المقفع بتعريبها أيام حكم العباسيين. وكتب الروداكي أيضاً السندباد البحري والوزراء السبعة. . . لكن لا ريب في أن اللغة العربية إحتفظت في الميدان العلمي الصرف بمركز الصدارة حتى في الشرق»[٢١].

ففي البلاط والمدن الكبرى في الامارة السامانية بدأت الحركة المناهضة لتفوق اللغة العربية والتي ستؤدي الى ولادة الأدب الفارسي التقليدي. . . ففضلاً عن روداكي (المتوفى العام ٩٥٤) هناك دقيقي (متوفى العام ٩٥٢) وقد كان شاعراً ايرانياً آخر أصله من طوس وقد عكف على نظم قصيدة للملك الساماني نوح الأول حول ماضي إيران وحكم الملك الأسطوري غوش تاسب ومواعظ زرادشت وهي قصيدة أدخلت لاحقاً في ملحمة الشاهنامة للفردوسي. وأما الفردوسي نفسه أو هوميروس فارس (حوالي ٩٣٢ ـ ١٠٢١) فأصله من طوس مثل دقيقي ومثله كانت بداياته في أيام حكم السامانيين. وإن بلاد ما وراء النهر السامانية كانت مركز دراسات فلسفية استقطبت العديد من أشهر علماء الإسلام. إن أكبر فيلسوف عربي، وهو إبن سينا الذي ولد قرب بخارى حوالي العام ٩٨٠، نال حماية الملك الساماني نوح الثاني وأكمل دراساته في مكتبة هذا الأمير قبل ان يذهب للعيش في بلاط بني بويه»[٢٢].

٣ ـ مصر المستقلة تحتل سورية.

سلالة الطولونيين التركية (٨٧٢ ـ ٩٠٥)

بعد خسارة ايران الشرقية وافريقيا الشمالية واسبانيا فإن الخليفة العباسي كان ما يزال حوالي العام ٨٧٠ يحكم على ايران الغربية والعراق وبلاد ما بين النهرين وسورية ومصر. وكان يجري اختيار حكام المقاطعات، وهم نواب ـ ملوك حقيقيون من بين الشخصيات النافذة في عالم البلاط ولكن، حرصاً على ما لديهم من حظوة وللإشراف على مصالحهم وسط المؤامرات والمكائد الدائمة في العاصمة، فقد كان هؤلاء الحكام مجبرين بالبقاء دائماً على مقربة من البلاط. ولذا نادراً ما كانوا يغادرون العاصمة للإقامة في مقر حكوماتهم التي كانوا يكلونها الى مساعدين لهم.

وفي العام ٨٦٨ عُين التركي بايباربك حاكماً على مصر فأوفد اليها ممثلاً عنه يدعى أحمد (٨٦٨ ـ ٨٨٣) وهو إبن أحد الأرقاء الأتراك المعتقين وإسمه

21 Brockelmann, *op. cit.*, p. 146.
22 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I. p. 216, 217, 218.

طـولون من بخـارى الذي ارتقى أيـام الخليفة المعتصم الى قـائد حـرس الخليفة الشخصي. وكـان أحمد رجـلاً متفوقـاً وذا تربيـة مميزة، فلم يتسلم بـادىء الأمر الا القيادة العسكريـة على الفسـطاط (القاهـرة القديمـة) لكنه مـا لبث ان أصبح قوياً الى حد أنه جعل سيادته تشارف سيادة الحاكم الأصـلي وتجعله مسيطراً عـلى زمـلائه ممن كـانوا يتـولون الإدارات المـدنية والمـاليـة في مصـر. وفي العـام ٨٧٢ حظي من الخليفة على منصب حاكم. وأنيطت به كـل الإدارة السياسيـة والماليـة وكل السلطات المدنية والعسكرية فأصبح من يومها يتصرف كسيـد حاكم ولكنـه ظل على تبعيته لسلطة خليفة بغداد.

وكفرعون حقيقي فـإن أحمد بن طـولون كـوّن جيشاً قـوياً مؤلفـاً من أرقاء وأرقـاء معتقين وأجـانب حيث سيغلب عليه لاحقـاً العنصر اليـونـاني. وبعـدمـا حـافظ في مصر عـلى الخيـرات التي تجنيهـا تلك البـلاد من زراعتهـا وصنـاعتهـا المـزدهرة فقـد أمّن للسكان عـدالة حـازمة وفـورية. وقـد وفـرت تلك التـدابـير مرحلة سلام وازدهار نعمت بها مصـر وجعلت بلاط هـذا الحاكم يضـاهي بلاط خليفة بغداد روعة. وأخيراً، وتشبهاً بالخلفاء العباسيين الذين أقـاموا مقـرهم في سامراء، فـإن أحمد بن طـولون بنى قصـراً شمال شـرق الفسطاط في «القـطايع» مـع مستشفى وقلعة ومسجـد رائـع يحمـل اسمـه. ونقـل الى هـذا الحي المـدني الجـديد «ثقـافة العـراق وفنه اللذين ذابت فيهـا العناصـر الفارسيـة والهللينية» (بروكلمان). «إن هذا الأمير الذي كان متقدماً عـلى عصره كـان أول من أعطى مصـر سياسـة مستقلة بل ويمكننـا تقريبـاً أن نصفها بـالقومية مما كـانت الأجواء تجهله بعد في تلك الأيام» (وايت).

واستعـاد ابن طولـون السياسـة المصريـة التقليـديـة التي حملت الفـراعنـة والبطالسة دومـاً على ضم سـورية وفلسـطين، ففي العام ٨٧٧ اجتـاح المقاطعـة السـوريـة التي كـانت تـابعـة لبغـداد وتلقى عـلى أثـر ذلـك تهنئـة من حـاكمـه باياربك. وكان موقف الوصي على الخلافة، والغارق في حـرب مع الـزنج، قـد أفسـح له المجـال بذلـك. وقد تشجـع ابن طولـون من جراء هـذه الانتصارات فدار في خلده ربما أن ينقـل الى مصر مـركز الأمبـراطوريـة والخلافـة،من هنا راح يـطالب الخليفة المعتمـد ليتحرر من وصـاية أخيـه مـوفق وأن يضـع نفسـه تحت وصايته هو. ولئن أذعن المعتمد لهذا الأمر غـير أنه حـاول الهرب الى مصـر لكن محاولته كشفت ومنع من الفرار. عنـدها أعلن أحمـد انفصالـه عن بغداد وامتنـع عن ذكر موفق كـوريث للخلافـة في صلاة يـوم الجمعة. وكـان الرد الـوحيد من

بغداد أنها أمرت بلعن أحمد بن طولون في المساجد.

وبعد خمسة عشر عاماً من حكمه توفي أحمد بن طولون العام ٨٨٣ على الحدود السورية البيزنطية. وأفادت بغداد من موته المفاجىء هذا لتثير حكام دمشق وبلاد ما بين النهرين الشمالية ضد ابنه الأصغر وخلفه خماراويه (٨٨٣ ـ ٨٩٣). فنشبت الحرب بين بغداد والحاكم التابع لها. وبعد معارك كرّ وفرّ تم عقد اتفاق صلح العام ٨٨٦ ضمن للطولوني حكم مصر وسورية مدة ثلاثين عاماً لقاء جزية ضئيلة يدفعها لبغداد. وما لبث أن انضم أيضاً شمال بلاد ما بين النهرين تحت سيطرته. وإثر موت الخليفة والوصي على الخلافة فإن حاكم مصر (نائب ـ الملك) عقد اتفاقاً جديداً مع الخليفة المعتضد ابن موفق (٨٩٣). وقد توطد هذا الاتفاق بزواج الخليفة من ابنة الطولوني «قطر الندى» وجرى الزواج خلال احتفالات اتسمت بأبهة وعظمة نادرتين.

كان خماراويه ملكاً حقيقياً فاق أباه حياة ترف وعظمة. وقد تميز حكمه وحكم أبيه بالثروة والعظمة. وإبان حكميهما البالغي الشعبية شهدت مصر قوة ومقاماً مميزين وأصبحت لديها بحرية مرموقة. وقد شجعت الزراعة وعززت الفنون والعلوم والآداب أسوة ببلاط بغداد. لكن بذخ خماراويه المفرط سيؤدي في النهاية الى إفقار المقاطعات والقضاء على أسرته مثلما حصل بعدها للخديوي اسماعيل (١٨٣٨ ـ ١٨٩٥). لذا وفي العام ٨٩٦ اغتيل خماراويه في دمشق وترك العرش لأطفال قصّر تم عزلهم عنه العام ٩٠٥.

٤ ـ تمرد القرامطة وهجماتهم (٨٩٤ ـ ٩٠٦)

أ ـ القرامطة أسياد جزيرة العرب الجنوبية (٨٩٤)

في حوالي نهاية القرن التاسع، هزت جنوب جزيرة العرب حركة سياسية ـ دينية أثارها القرامطة الذين أصبحوا مصدر رعب للشرق الاسلامي.

ففي العام ٨٩٤ نجح المدعو أ. زيد ب. بهرام المرسل من قِبَل رئيس فرقة القرامطة في تأسيس دولة مستقلة في منطقة البحرين في الخليج العربي. «وقد حكم هو وخلفاؤه كقائمين بالأعمال نيابة عن الإمام المتخفي... وكان ابن أ. زيد وخلفه كدّر العراق بهجمات متكررة شلت حركة الحج. وفي ١٢

كانون الثاني ٩٣٠ استولى حتى على مكة ونقل حجر الكعبة الأسود الى عاصمته الأحساء حيث ظل مدة ثلاثين عاماً»[٢٣].

ب ـ القرامطة يكتسحون سورية والعراق (٩٠٠ ـ ٩٠٣)

وبدءاً من العام ٩٠٠ نجح رئيس فرقة القرامطة «سيد الصفاء» في تحريك انتفاضة في سورية ضد حكم طولونيي مصر الذي بات ضعيفاً. «وأعلن «سيد الصفاء» خليفة على المسلمين تحت اسم أ. عبدالله محمد الذي يزعم أنه سليل علي. وعاث القرامطة فساداً في كل مدن سورية وبوحشية فائقة. وحدها دمشق قاومت حصارهم لها. وخلال هذا الحصار توفي خليفتهم العام ٩٠١ واستبدل بأخيه أ. عبدالله أحمد الذي أسر بعدها بسنتين وأعدم في بغداد»[٢٤].

٥ ـ بغداد تضع يدها مجدداً على مصر وتقمع حركة القرامطة (٩٠٥ ـ ٩٠٦)

إن ضعف وانعدام خبرة أولاد حاكم مصر، والذين كانوا قُصَّراً وعاجزين عن تولي العرش وهجوم القرامطة على سورية وعجز مصر عن الدفاع عنها وعدم خضوع أمراء مصر وسورية، كل هذا أتاح للخليفة المكتفي الافادة من هذه الأجواء بإخراج الطولونيين وإعادة مصر وسورية تحت سلطته المباشرة (٩٠٥). وفي تلك السنة نفسها تم أسر الخليفة القرمطي وأعدم في بغداد. وفي السنة التالية سقط رئيس حركة القرامطة في سورية بدوره (٩٠٦). وبعدما استعاد حكم بغداد سيطرته على مصر وسورية ونجح في تحطيم حركة القرامطة في سورية نجح كذلك في قمعها في العراق (٩٠٦). إلا أن جزيرة العرب ظلت أسيرة القرامطة الشرسين.

غير أن استعادة وادي النيل على يد سادة بغداد ظل متزعزعاً وقصير الأمد، فمصر التي ذاقت طعم الاستقلال تحت حكم الأتراك الطولونيين (٨٧٢ ـ ٩٠٥) ستستعيد هذا الاستقلال من جديد تحت حكم الأتراك الأخشيديين بدءاً من العام ٩٣٥.

23 Brockelmann, *op. cit.*, p. 128.

24 Brockelmann, *op. cit.*, p. 128.

٦ ـ حكم الخليفة المقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٢).
اضطرابات وانعدام أمن، وأزمة اقتصادية ومالية

في حين نجح خلفاء أقوياء في نهاية القرن التاسع في تأخير خراب الأمبراطورية وتفككها الى حين، ففي القرن العاشر في المقابل كان الخلفاء دون مستوى المهمات الملقاة على عواتقهم. «ولن يوقف شيء بعد اليوم تفتت نظام يفتقر الى دستور والى وحدة قومية والى أي سبب طبيعي للعيش: فالمجموعة الاسلامية كلمة خالية من أي مفهوم سياسي. وسوف تعمل غزوات الأتراك والمغول على تحطيمها»[٢٥].

الخليفة المقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٢) هو ابن المكتفي وخلفه وقد كان له ثلاثة عشر عاماً من العمر عندما توفي والده وقد حكم على العراق وخوزستان وفارس الغربية وبلاد ما بين النهرين وسورية ومصر. واعترف بسيادته في عمان وأذربيجان وأرمينيا. لكن حكم هذا الخليفة الطويل تميز بنفوذ النساء والخصيان وكان قصره بؤرة للمؤامرات الدامية وعمت الفوضى كل فروع الحكم. وكان القرامطة والمغامرون يهددون سلطته باستمرار كما أن عائدات الضرائب خفت في عهده بشكل ملموس.

«وكانت النفقات المطلوب دفعها من تلك العائدات تستخدم في صيانة المدينتين المقدستين مكة والمدينة وطريق الحج والقلاع على الحدود ودفع رواتب القضاة ورئيس شرطة الأسواق ومحاكم الاستئناف ورؤساء البريد في جميع المقاطعات. لكن المبالغ الكبيرة منها كانت تلتهمها نفقات بلاط الخليفة ورواتب قواته... وبرغم العائدات الضخمة كانت الموازنة تصاب دائماً بالعجز. ولما لم يكن ممكناً تغطية ذلك العجز بالقروض، كما تفعل الدول الحديثة في هذه الأيام، كان يتم الحصول على المبالغ الناقصة عن طريق غرامات تفرض على الأغنياء وغالباً أيضاً على الموظفين الذين أثروا من مداخيل عملهم الوفيرة... وكانت إحدى الطرق الأكثر اتباعاً للتهرب من الضرائب وحماية المرء لأمواله في الوقت نفسه هي إعلانها لصالح عمل خيري... وكان المرء يحتفظ لنفسه بإدارة تلك المؤسسات أو يخصصها لوريثه الأكبر سناً... لكن الخسارة الأكبر التي منيت بها الخزينة العامة بدأت عندما لجأ الخلفاء أنفسهم، بسبب نقص السيولة بين أيديهم، الى دفع رواتب الجنود بإعطائهم

25 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 292.

أراض بدل الأموال. . . إن نقص المال أجبر الخلفاء شيئاً فشيئاً على تعيين قادة أتراك، حتى في العراق نفسه، لجباية الضرائب عن مناطق واسعة لجمع رواتب قواتهم. فانتشرت حالة انعدام أمن كبير ليس في الريف فحسب بل وفي مدن العراق أيضاً. وكانت حروب الأرقاء وغارات القرامطة قد شلت التجارة والصناعة طوال سنوات عديدة. وكانت حياة الترف التي تعيشها الطبقات العليا تتناقض مع البؤس المدقع الذي كانت عليه الطبقات الدنيا برغم تواضع احتياجات الانسان الشرقي وارتفاع القيمة الشرائية للمال»[٢٦].

وبعد اثنتين وعشرين سنة من الحكم تم في العام ٩٣٢ اغتيال المقتدر

٧ ـ الحركة الصوفية

«والى صراعات الكبار الحزبية جاءت تضاف انقسامات المذاهب الدينية التي يعمل على تغذيتها الوعاظ الدينيون باستمرار. فلم تعد هذه الصراعات نزاعات شيعة معارضين لسنة بل كان أيضاً في عداد هؤلاء السنة جماعة الحنابلة المتعصبون وغيرهم ممن يؤججون الخلافات باستمرار. بيد أنه تفادياً لتلك الخصومات راح بعض المتبصرين المتأملين يبحثون عن ملجأ لهم في التأمل الديني ناظرين أبعد من المسائل العقائدية والسياسية ـ الدينية. . . ومنذ أن غدت بغداد عاصمة الأمبراطورية تشكل أنصار حركة التأمل في جمعيات. . . وأخذوا عن الرهبان المسيحيين ارتداء جبة الصوف ومن هنا أطلق عليهم اسم الصوفيين. كما أن التأثير المسيحي كان أيضاً ظاهراً في ممارساتهم التقوية غير أن أصل هذه الحركة هو عربي إسلامي بحت»[٢٧].

٨ ـ تأسيس الإمارة العليا (٩٣٦)

أ ـ الحاكم رايق، أمير الأمراء (٩٣٦ ـ ٩٣٨)

القاهر (٩٣٢ ـ ٩٣٤) هو خلف المقتدر. تميز بوحشيته وبخله. وبعد سنتين من حكمه خلع عن عرشه وسُملت عيناه وسجن.

الراضي (٩٣٤ ـ ٩٤٠) هو ابن المقتدر، وفي عهده عملت الاضطرابات وشح الأموال على زعزعة نظام الأمبراطورية فاستدعى ابن رايق حاكم واسط

26 Brockelmann, *op. cit.*, p. 130, 131.

27 Brockelmann, *op. cit.*, p. 131, 132.

والبصرة القوي وأنشأ من أجله منصباً جديداً هو منصب «أمير الأمراء». ويكون حامل هذا اللقب رسمياً القائد الأعلى للجيش ولكل إدارات الدولة (٩٣٦) كما ينادى باسمه في صلاة يوم الجمعة في المساجد.

ومنذ وصوله الى بغداد عمد رايق الى الغاء منصب الوزير وأسند الى نفسه مهامه وأوكل إدارة المالية الى أحد كتّابه وحصر كل السلطات في يده. فصار «عمدة القصر» هذا هو الملك الفعلي ولم يعد الخليفة إلا مجرد ظل.

ب ـ قائد الحرس التركي، أمير الأمراء وسيد الخلافة المطلق (٩٣٨ ـ ٩٤٥).

بعد سنتين على ارتقاء رايق سدة العرش قام بيجكين قائد الحرس التركي بتجريده من مهامه واستأثر لنفسه بمسؤولية أمير الأمراء وأصبح ممسكاً بزمام السلطة المطلقة ولم يبق إلا أن يسمى خليفة (٩٣٨).

ج ـ تفكك الأمبراطورية العباسية

إن إنشاء الإمارة العليا كرّس رسمياً انهيار خلافة بغداد. فتاريخ الخلفاء العباسيين الذين سيتوقف حكمهم الفعلي بدءاً من العام ٦٣٨ لن يكون بعد ذلك سوى تاريخ ثورات قصور وردود فعل عليها على الصعيد الداخلي. إنه مطلع عهد جديد يتنازع فيه ضباط حالفهم الحظ هم من العبيد القدامى والأتراك أصلاً على السلطة.

«في القرن العاشر كان أمير الأمراء يملك حق التصرف بحياة الخليفة الذي لم يعد يملك القوة لعزله ولا يرغب في ذلك دائماً. . . إن سلطة الخلافة هذه التي كان يدور عليها نزاع قوي لم يعد لها مظهر خارجي ولا باطني. وفي سورية ومصر اللتين انتهت فيهما السلالة الطولونية سرعان ما ستحكمان لسنوات عديدة من قبل أسرة حكام أتراك هم الأخشيديون. وفي وادي الفرات الأسفل سادت سلائل أحد رؤساء البريد القدامى الذين عرفوا بأسرة البريدي. وفي بلاد ما بين النهرين وحوالي العام ٩٣٦ أصبحت الموصل مركز تجمع للبدو التغالبة الذين انضمت اليهم قبائل الربيع وبكر ومدار وكان يحكم عليهم بنو حمدان. لكن سيد الخلافة سوف يأتي من المقاطعات الشرقية للأمبراطورية وهو الأمير بويه»[٢٨].

28 Gaudefroy-Demombynes, *op.cit.*, p. 292, 293, 294.

٩ ـ مصر مستقلة من جديد وتعاود احتلال سورية.
سلالة الأخشيديين التركية (٩٣٧ ـ ٩٦٩)

إن وادي النيل الذي عاد مقاطعة تابعة لأمبراطورية بغداد منذ سقوط الطولونيين العام ٩٠٥ كان الممتلكة الوحيدة الباقية للخلافة في أفريقيا. فمنذ العام ٨٠٠ كان الأغالبة الذين اتخذوا مقراً في القيروان يحكمون كأسياد في شمال أفريقيا مع اعترافهم بالسيادة الإسمية للخليفة العباسي.

وفي العام ٩٣٥ أي بعد مرور ثلاثين عاماً على سقوط أسرة الطولونيين التي ضعفت، عين الخليفة تركياً آخر هو محمد بن طغج حاكماً على مصر. وأفاد محمد هذا من الفوضى المستشرية في الأمبراطورية، معتمداً على براعته الإدارية وشجاعته وعلى تأييد الشعب المصري الذي ذاق طعم الاستقلال طيلة العهد الطولوني، فنجح خلال سنتين في تثبيت قوته وسلطته. ولما كان يطمح الى لقب يجعله في مركز أعلى من مراكز حكام المقاطعات فقد استحصل من الخليفة العام ٩٣٧ على لقب أخشيد وهو لقب أمراء فرغانة (سجديان) مسقط أسرته»[٢٩].

وسرعان ما استعاد سيد مصر الجديد السياسة التوسعية الخالدة التي كانت تنتهجها مصر نحو الشرق فانتزع من بغداد تنازلاً عن فلسطين الجنوبية وشبه جزيرة سيناء اللتين لا بد منهما لحماية وادي النيل لقاء دفع جزية. وفي العام ٩٣٨ أوغل أبعد الى الشمال وبسط سيطرته على جنوب سورية وصولاً الى دمشق.

(٢٩) في تاريخ لاحق، إن أحد حكام مصر هو اسماعيل باشا، سوف يستوحي ربما من هذه السابقة، ليحصل في العام ١٨٦٧ من سيده العثماني، سلطان ـ خليفة القسطنطينية، على لقب خديوي، وهو لقب يأتي في التسلسل العثماني، مباشرة بعد لقب سلطان وقبل لقب وزير.

١٠ ـ منافسات عليا في بغداد. وصول آل بويه الإيرانيين الى الحكم (٩٤٥)

وفيما كان الأخشيديون يستقرون ويوطدون أسس ملكهم في مصر كان حاملو لقب أمير الأمراء في بغداد يتخاصمون بالوسائل الأشد عنفاً وكانت منافساتهم سبباً لأخطر الاضطرابات.

وبعد موت الخليفة الراضي قام أمير الأمراء التركي بيجكين بتعيين خلف له هو المتقي (٩٤٠ ـ ٩٤٤) وهو أخو الخليفة السابق. وفي العام ٩٤١ فإن الأمير الأعلى إبن رايق الذي عاد في هذه الأثناء الى السلطة هزم على يد بريديي البصرة الذين ما انفكوا ينهبون الأراضي العراقية. ففر الخليفة من بغداد والتجأ الى الموصل لدى أمراء عرب من بني حمدان يسيطرون على تلك المنطقة (٩٤١). فأفاد حسن الحمداني من المصاعب التي يعاني منها ابن رايق وعمد الى قتله وانتحل لنفسه مهام أمير الأمراء ولقب ناصر الدولة في حين منح أخاه علياً لقب سيف الدولة (٩٤١ ـ ٩٤٢). وأعاد حسن وعلي المزهوان بهذه الألقاب الطنانة الخليفة الى عاصمته.

«أما طوزون ، وهو تركي آخر، وإثر انتصاره أصبح أمير الأمراء. وعندما أغاظ الخليفة تحول عنه هذا الأخير من جديد الى آل حمدان وفي الوقت نفسه استجار بأخشيد حاكم مصر. لكنه لم يُصب أي نجاح. فقد منع طوزون الحمدانيين من الاقتراب من بغداد. وهرب الخليفة الى الرقة على نهر الفرات. وانتزع الحمدانيون حلب من حاكم مصر وجعلوا منها عاصمتهم (٩٤٤)... وظلت تلك القوى تتجاذب الخليفة بعدما انضمت اليها قوة آل بويه (الإيرانيين). فقرر الخليفة المتقي العودة الى بغداد. لكن تلك العودة كانت شؤماً عليه لأن طوزون سمل عينيه ليحل محله أحد أبنائه... هو المستكفي (٩٤٤).

وما لبث أن توفي التركي طوزون وخلفه الوزير شيرزاد الذي كان آخر أمير أمراء بالمعنى المتعارف عليه»[٣٠]. وفي العام ٩٤٥ عمد قائد فارسي هو أحمد بن بويه، وهو أمير مستقل في منطقة كرمان الإيرانية، الى دخول بغداد إثر معركة سهلة واتخذ لنفسه لقب السلطان «وهو اسم يبدو أنه كان يعني في بادىء الأمر ما يشبه«رئيس السلطة التنفيذية»، ويظهر بأنه أدنى من لقب خليفة. وكان بنو بويه من الشيعة«فانتصرت إيران من جديد»[٣١].

30 Huart, *op. cit.*, I, p. 315.
31 Huart, *op. cit.*, I, p. 315.

١١ ـ نهاية سلطة خلفاء بغداد العرب السياسية (٩٤٥)

إن تاريخ العام ٩٤٥ يمثل تحولاً كبيراً في تاريخ أمبراطورية بغداد العربية ـ الاسلامية. وإذا كان العام ٧٥٠ قد شهد مع نصر الخلفاء العباسيين تحول الأمبراطورية، من سيادة العرب ـ السوريين الى سيادة العرب الإيرانيين فإن وصول سلاطين بني بويه العام ٩٤٥ الى السلطة، والذي كرس سقوط الخلافة العربية ـ الإسلامية كسلطة سياسية سيدة وفعالة، سينقل تلك السلطة نهائياً من يد الخلفاء العرب الى يد ملوك أو سلاطين من غير العرب. فالإيرانيون والأتراك وسواهم من الآسيويين سيفرضون بعد ذلك التاريخ وعلى التوالي أو في آن واحد سيادتهم السياسية والعسكرية على الشرق العربي ـ الإسلامي وحتى مطلع القرن العشرين الحالي.

وهكذا وبدءاً من العام ٩٤٥ فإن تاريخ خلافة بغداد الذي سيمتد حتى العام ١٢٥٨ «لم يعد بعد الآن يخص، إن جاز القول، العرب» (هوارت).